الفصل الخامس

الصهيونية الدينية والصهيونية السياسية

إنهم يفكرون ويتحركون على أساس
أنهم شعب مقدس ، وأن ربهم قدوس ،
وأنهم يستعلون على كل الشعوب .

الفصل الخامس

الصهيونية الدينية والصهيونية السياسية

أولاً : الصهيونية الدينية

تعرف الصهيونية الدينية بأنها تيار دينى ظهر فى النصف الثانى من القرن ١٨ الميلادى ، يدعو إلى الهجرة إلى فلسطين لإقامة الشريعة اليهودية ، والعمل بالوصايا التوراتية ، لتحقيق مملكة الرب ، والأمة المقدسة على أرض فلسطين ، ويطلق على هذا التيار ، التيار الدينى الأصولى ، الذى يضاد الصهيونية القومية / السياسية التى جاء بها هرتزل ورفاقه ، من أجل إقامة الدولة القومية على أرض فلسطين ؛ لأن أصحاب التيار الدينى دائمًا يرون أن إنشاء الدولة القومية ، بالرؤية الهرتزلية يعد استعجالاً للنهاية التى يجب أن تقترن بظهور (الماشيح) المخلص .

ومع أن التيار الدينى (الأرثوذكسى) المتشدد ، كان لا يزال التيار الأكثر تأثيراً فى الجماعات اليهودية ـ خاصة فى أوربا الشرقية ـ حتى نهاية القرن ١٩م إلا أن الحركة الصهيونية العلمانية بقيادة (تيودور هرتزل) استطاعت أن تستقطب غالبية من هذا التيار لتدعم بتأثيرها الدينى فى اليهود طاقات الموقف السياسى القومى بين اليهود. قال (هرتزل) فى خطابه فى المؤتمر الصهيونى الأول ، فى سنة ١٨٩٧م: « إن الصهيونية عودة إلى اليهودية ، قبل أن تكون عودة إلى الوطن اليهودى ، كذلك لقد وجدت الصهيونية بين أهم عناصر اليهودية ، وأكثرها محافظة ، وإن الاتحاد لم يكن ممكنًا بدون القاعدة القومية » (١) .

كان الصهاينة العلمانيون ـ وهم ملاحدة ـ حريصين على جذب التيار الدينى المؤثر فى التجمعات الدينية اليهودية .

ومع أن التيار الدينى كان ينظر إلى الصهاينة العلمانيين على أنهم أصحاب فكر علمانى يمكن أن يعرض الأرثوذكسية للخطر ، ويمحو الصيغة المميزة للكبرياء

(١) عن محمد خليفة حسن : الحركة الصهيونية ، ص ٢٠١ .

اليهودى، وكان الحاخامات الأرثوذكس على حق، ذلك لأن (هرتزل) ورفاقه كانوا يعتقدون بينهم وبين أنفسهم بأن مكان الحاخامات هو المعابد » [١] . بل إن (هرتزل) ورفاقه كانوا ينظرون إلى الدين اليهودى على أنه مجموعة من الأفكار لا يمكنها إدارة شؤون اليهود المعاصرين أو تغير وجهتهم من الشتات ، وتنقلهم إلى أرض تقوم عليها دولتهم القومية ، لكن هؤلاء الصهاينة العلمانيين أنفسهم كانوا يقدرون مدى قوة السلطة الدينية التى يملكها هؤلاء الحاخامات الأرثوذكس على أغلبية اليهود ، ومن ثم فلم يمانعوا بأن يعلنوا أن القومية اليهودية يجب أن تقوم على تعاليم التوراة واللغة العبرية ، والأرض الموعودة ، أى إن الأمر من وجهة النظر العملية البحتة ، يجب أن يقوم كل يهودى بنصيبه فى القومية اليهودية الناشئة .

أما الحقيقة فى التحالف الصهيونى الدينى/ والعلمانى فيبرزها شموئيل الموج: (مبحث موقف العلمانيين من الدين والمتدينين فى بداية الحركة الصهيونية) فى أن الاتجاه الصهيونى العلمانى رأى أن « الصهيونية تسير نحو التغير من تجمع يقوم على مبدأ دينى إلى تجمع قومى ، وثورة داخلية جذرية داخل اليهودية ، تقوم بتغيير طبيعة الشعب من كيان دينى إلى كيان قومى » [٢] ، مع الإفادة فى الوقت نفسه من تأثير التيار الدينى على تجمعات اليهود ، وهذا ما تنبه إليه (هرتزل) رائد الحركة الصهيونية العلمانية فقال قولته المشهورة : الصهيونية هى العودة إلى اليهودية ، قبل العودة إلى دولة اليهود » وبهذه المقولة استطاع (هرتزل) أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة داخل مجتمع المتدينين ، فرحبوا به على أنه : « الزعيم المندمج الذى عاد إلى شعبه مادًا ذراعيه إلى الشريعة ، مع أن (هرتزل) لم يكن يقصد غير تحقيق اتفاق قومى ، أى الاعتراف بإطار قومى عام رغم الاختلافات فى الاعتقادات » [٣] .

وبذلك أيد هذا التيار الصهيونى الدينى ، التيار الصهيونى السياسى العلمانى

---

(١) دافيد فايتل : مبحث: إشكالية الصهيونية الدينية، ص ٢١ ، ضمن كتاب الصهيونية الدينية تحرير أنيتا شابيرا، مارس ١٩٩٨م ـ القاهرة .

(٢) شموئيل الموج : مبحث : موقف العلمانيين من الدين والمتدينين فى بداية الحركة الصهيونية ، ص ٦٧ ضمن كتاب الصهيونية الدينية تحرير أنيتا شابيرا ، مركز الدراسات ـ جامعة القاهرة ١٩٩٨م.

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٧١ .

بزعامة (هرتزل) ومع أن زعماء التيار الصهيونى الدينى اختلفوا مع الآخرين حول تعريف العلاقة بين الدين والثقافة فى المؤتمر الصهيونى الخامس فى سنة ١٩٠١م إلا أنهم أيدوا مساعى الحركة الصهيونية السياسية نحو إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين تحت شعار : التوراة والعمل .

ولكن بينما ارتبطت الصهيونية الدينية بفكرة المسيح اليهودى من نسل داود وسليمان لأن داود وسليمان ـ باعتقادهم ـ وحدا دولتهم القديمة ، ولعل فى اشتراطهم أو اختيارهم أن يكون من نسل داود ، هو بناء مفاهيم عنصرية يهودية تشعرهم بالاستعلاء على كل الشعوب ، فيما عرف فى التراث الدينى اليهودى بمصطلح « مشيحوت » ويعنى : المشيحانية ، أى الخلاص » (١) .

ارتبطت الصهيونية العلمانية بذرائع سياسية بحتة لإقامة دولة اليهود على أرض فلسطين ، مقتنعين بضرورة وجود ضمانات سياسية من الدول الأوربية العظمى ـ وهى دول علمانية ـ فى مقدمتها إنجلترا مثل اعتراف صريح بالموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين واستيطانها ، والاعتراف بأحقيتهم فى تأسيس الدولة اليهودية على أراضيها ، أى الحصول على الشرعية الدولية للجهود الصهيونية بإقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين العربية .

والصهيونية بالمعنى الدينى (التراث الدينى اليهودى) تنسب إلى جبل صهيون والقدس وكل إرتس يسرائيل [أرض إسرائيل فى المفهوم التوراتى] ولهذا فهم يرون أن الشعب اليهودى بنت صهيون .

وفكرة العودة إلى صهيون ، لم تغب عن اليهود فى معتقدهم ، وإيمانهم بأن «الماشيح» سيرجع فى آخر الزمان ، ويقود اليهود إلى أرض الميعاد .

لكن تعريفات الاستعمار والصهيونية السياسية العلمانية « تشير إلى الأمل الصهيونى فتعرف الصهيونية بأنها الحركة الرامية إلى عودة اليهود إلى وطن أجدادهم « إرتس يسرائيل » حسبما جاء فى الوعد الإلهى ، والآمال المشيحانية

(١) د. منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ١٨ ، أبو ظبى فى سنة ١٩٨٦م .

لليهود » [1] فهى بهذا المنظور مخطط استعمارى استيطانى يرتكز على قواعد دينية موظفة لمصلحة مخطط علمانى بحت .

هذا هو الفرق بين رؤيتين دينية ترى حتمية أن يكون المشروع الصهيونى ، مشروع إحياء دينى لليهودية لا لليهود ، ورؤية علمانية سياسية تريد إقامة وطن قومى لليهود بأرض فلسطين بأى وسيلة ، وبأية ذرائع توصل إلى الهدف » [2] .

ويكاد يجمع الدارسون على أن طلب اليهود للخلاص انبثق من انكسارهم فى الأسر الآشورى سنة ٧٢٢ ق.م على يد سلمنتنصر الآشورى ، ثم انكسارهم فى السبى البابلى على يد نبوخذ نصر فى سنة ٥٨٦ ق.م .

إن أهم ما أحدثه المنفى من تغيير فى الدين العبرى ، الذى تحول إلى الدين اليهودى القومى فى الأسر البابلى ، إدخال فكرة « الماشيح » (الملك المقدس الذى يعيد اليهود من منفاهم إلى دولتهم بعمل خارق فيعيد لهم مملكتهم الداودية ، ويحقق لهم سيادتهم على البشر .

« وهكذا التحم الدين اليهودى بالقومية التحامًا أصبح يتعذر فصمه ، لأن القومية صارت فحواه ، وصار الدين اليهودى ، قومية دينية يهودية ، ومنها تبلورت فكرة وجوب نقاء الدم اليهودى ولهذا عند العودة من المنفى البابلى بكى عزرا بسبب زواج اليهود من الأمم الأخرى . قال عزرا : « ولما كملت هذه تقدم إلى الرؤساء قائلين : لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأراضى حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحيثيين والغرزيين واليبوسيين والعمونيين والمؤابيين والمصريين والأموريين لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم ، واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى ، وكانت يد الرؤساء ، والولاة فى هذه الخيانة أولاً . . . والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتكم لبنيهم» (عزرا ٩/ ١ ـ ٢ ، ١٢) .

أما نحميا فقد كانت إصلاحاته نهائية فى قوله : « فطهرتهم [الكهنوت واللاويين] من كل غريب » (نحميا ١٣/ ٣٠) .

(١ ، ٢) راجع : د. المسيرى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٦/ ١٣ ، ٢٨١ .

(٣) راجع : إسماعيل الفاروقى : الملل المعاصرة فى الدين اليهودى ، ص ١٠٠ .

ولم يكن هذا الاستعلاء على الآخرين ، إلا انعكاسًا نفسيًا لإحساسهم بالدونية بسبب الانكسارات المتتالية ، وهذا الإحساس النفسى بالانكسار ، ولد إظهار مشاعر الاستعلاء القومى ، وأوجد حلم بطل دينى من سلالة داود يأتى لخلاصهم، ورأوا أن التوبة تحقق لهم هذا الحلم ، وكذا العودة إلى تعاليم التوراة، غير أن هذا الاعتقاد لم يستقر فى عقول اليهود ، فقد ظهر شروح عديدة للتوراة ، وهى ما عرفت فيما بعد بالتلمود ، اختلطت فيها الأحكام بالفتاوى والحكايات الشعبية والخرافات التى كانت تتناقل بين حاخامات اليهود شفويًا مما ساعد على وجود التناقضات بها إلى أن تم جمعها فى القرن الثانى الميلادى ، ومن ثم ظهر معتقد جديد لمفهوم : « المشيحوت » فى صورة تباعد بينه وبين ما جاء فى أسفار الأنبياء « فقد بلغ قمة تطوره فى عصر التلمود ، وأصبح يشير إلى مجىء ملك يهودى ترسله السماء بقدرات حربية خارقة ليقود اليهود ، ويضعهم طبقًا لهذا المفهوم على قمة السلم البشرى » [1] بشرط أن تشهد الأرض دماراً يتبعه هدوء وسلام أبدى يمهد لسيادة بنى إسرائيل على العالم ، فتأتيهم شعوب الأرض من أجل تقديم القرابين لهم ، خضوعًا لبنى إسرائيل التى يجب أن تصبح سيدة على العالم .

الإيمان بهذه العقيدة يجعل الرابيون والحاخامات الأرثوذكس يرفضون الصهيونية ، لأنها تستعجل النهاية الخيرية لليهود ، بعاجل هو شر فى نفسه ، كما يرفضون تكريم الصهاينة ، الدليل على ذلك ما حدث فى النمسا مؤخرًا ، فقد أقامت حكومة مقاطعة فيينا احتفالية فى يوليو سنة ٢٠٠٤ بمناسبة مرور مائة سنة على وفاة « هرتزل » مؤسس الصهيونية السياسية (من أصل نمساوى) وإطلاق اسمه على أحد ميادين مدينة فيينا ، لكن طائفة اليهود الأرثوذكس بالنمسا بقيادة الحاخام الشاب (موشيه فريدمان) كان لهم رأى آخر ، فقد احتشد مئات منهم من المناهضين للصهيونية فى أنحاء أوربا ليعلنوا أن الصهيونية لا علاقة لها بالديانة اليهودية . وهدد الحاخام فريدمان حكومة النمسا بأن تحت يده وثائق تفيد أن حكومة النمسا تمول حركة « كاخ » الإرهابية العنصرية الصهيونية التى ينتمى إليها

(١) د. منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ١٩ .

باروخ جولدشتاين منفذ مجزرة الحرم الإبراهيمى ، كما هدد بأن لديه وثائق تؤكد مسؤولية الصهيونية عن إبادة يهود أوربا فى الدول التى كانت تسيطر عليها القوات النازية ، وأكد أنه مستعد لإظهار هذه الوثائق .

كما أن (فريدمان) أشار إلى أن (هرتزل) ، وكل قادة الصهيونية كانوا ملاحدة ، لا يؤمنون باليهودية دينا ، أى إنهم لم يكونوا أساسًا يهودًا ، ليقودوا اليهود إلى أرض الميعاد ، لقد قادوهم إلى كارثة على اليهودية » (١) .

ولقد وضعت الصهيونية الدينية أساسين مهمين ليكونا قاعدة المفاهيم لديها فى سيادة بنى إسرائيل على العالم ، هما : الشعب المختار ، وأن المسيح المنتظر سيقيم دولة بنى إسرائيل على الأرض الموعودة = أرض فلسطين، وأضافوا إليها القداسة، وأن أورشليم مركز العالم . ولقد سيطر هذا المفهوم على الفكر الدينى الكاثوليكى فى العصور الوسطى لدرجة أن (دانتى) مؤلف الكوميديا الإلهية جعل أورشليم مركز العالم .

وكانت الحروب الصليبية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر قد غيرت بعض المفاهيم والأفكار فيما يخص عقيدة المسيح المخلص ، فقد حمل الصليبيون العائدون معهم زعما ، هو أن المسيح سيعود بعد انقضاء الألف الأولى للميلاد ، وأن القدس يجب أن تعود للمسيحيين قبل عودة المسيح إلى الظهور » (٢) . ولقد أدت هذه الفكرة بالآباء من مفسرى التوراة والكتب اليهودية إلى إعادة تفسير النصوص الخاصة بفكرة الخلاص اليهودية فى التوراة والتلمود ، وقدوم العصر المشيحانى الذى يخلص اليهود ، ويحقق خلاص إسرائيل .

ولقد أضاف الرابيون والحاخامات طابع القداسة على أرض فلسطين ، فرأى (موسى بن نحمان) الملقب (برميان) (١١٩٤ ـ ١٢٧٠م) فى تفسيره لنصوص التوراة ، التى يصل بها الإنسان والحيوان إلى قمة كماله ، ومن هنا فقد رأى أن الاستيطان بفلسطين واجب دينى يساوى كل فروض التوراة ، وعلى هذا فيلزم كل فرد يهودى نفسه بالهجرة إليها ، والعيش فيها تمهيدًا لمجىء « المشيح » المخلص .

---

(١) صحيفة الأهرام ، رسالة فينا من مصطفى عبد الله فى ٢٠٠٤/٧/٩م ، ص ٦ .

(٢) د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ، ص ٣٩ ، المكتبة الثقافية سنة ١٩٧٠ .

ومثل هذه التفسيرات ، كانت من الأسباب التى دفعت بعض اليهود من حين إلى آخر إلى الهجرة إلى فلسطين والعيش فيها » (١) .

وكان (موسى بن ميمون) يرى أن قدوم « المشيح » أمر حتمى ، ويدعو كل يهودى إلى انتظاره مهما تأخر قدومه ، وجعل الإيمان بقدومه ركنًا أساسيًا من الإيمان بالعقيدة اليهودية وكانت فكرة عودة المشيح عند ابن ميمون أقرب منها عند الصهاينة الدينيين فى القرن ١٩ فهو لم يهتم بالمشيح المحارب ؛ لأن الخلاص عنده سيأتى فى مسار التاريخ بعيدًا عن أية كوارث ، أو علامات للظهور ، فالخلاص يأتى عن طريق التوبة ، ولذلك فإن التوبة شرط أساسى لمجىء « المشيح » والتمسك بالشريعة أيضًا . يقول ابن ميمون : « إننا مطالبون باتباع التوراة والشرائع فى كل العصور ، وبعد أن نفعل ما هو متوقع منا ، ويجدنا الرب ، ويجد أحفادنا مستحقين بدرجة كافية لقدوم « المشيح » فإنه سوف يرسله لنا» (٢) .

وهذه التوبة فى خطاب (موسى بن ميمون) تعادل فى التراث الدينى اليهودى ، وفى المصطلح الدينى اليهودى « تشوفاه » التى تعنى التوبة ، وتعنى العودة أيضًا ، على عكس كلمة « حزرة » التى تعنى العودة المادية فقط أو العودة الدنيوية .

وتطمئن الكتابات اليهودية هؤلاء الذين سيذهبون إلى أرض الميعاد ، من أرض الشتات ، بما ينتظرهم من نعيم مقيم ، « فسعديا الفيومى » المعروف « بجاءون » يقول فى كتابه : « الأمانات والاعتقادات : إن جميع أغنياء العالم سيقومون بنقل اليهود الساكنين فى بلادهم إلى أورشليم على عربات فاخرة تجرها جياد سريعة وسيكونون ساهرين على خدمة العائدين من بنى إسرائيل ليزودوهم بكل وسائل الراحة ، أما الفقراء فسيحملون اليهود على ظهورهم ، وبين أيديهم ، أما المقيمون فى أرض فلسطين من غير اليهود فسيعتنقون اليهودية ، ويعملون خدمًا فى منازل اليهود، وسيتوحد العالم تحت السيادة اليهودية، وتعترف كل الشعوب برب «يسرائيل»

---

(١) د. صبرى جريس : تاريخ الصهيونية من ١٨٩٢ ـ ١٩١٧م ، ١/٥٧ ، القدس ١٩٧٨م .
(٢) نقلاً عن د. منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ١٦٣ .

حاكمًا على الجميع ، وسيأتون إليها حاجين طائعين ، حاملين الهدايا لكى يقدموا للرب فى أورشليم » (١) .

ويتعجل الرابيون عودة « المشيح المخلص» يقول الرابى «عمنوئيل بن شلومو » ت ١٣٦٠م .

أسرع يا مشيح الرب ـ لماذا تتلكأ ؟

هاهنا تنتظرك الدموع المسكوبة .

المشتتون فى الوديان يسكبون الدماء .

كل قلب ينتظرك ، وكل لسان يرغب فى ترديد اسمك .

تحرك يا مشيحنا إئت إلينا ، راكبًا حصانًا يعدو بسرجه المطهم .

وهى قصيدة دينية تعيد إلى ذاكرتهم ، الحنين إلى صهيون ، والعودة إليه ، ففى المزمور ١٣٧/ ١ يقفون أمام هذه العبارات :

جلسنا على ضفاف أنهار بابل .

وذرفنا الدمع حينما تذكرنا صهيون .

ولكن حدث فى مسيرة حلم العودة تطور مشيحانى فى حركة (القبالاة) فى توصيل المنحى الاستعلائى فى رؤية أن « شتات بنى إسرائيل تعبير عن شتات يحدث فى الكون كله ، وأن فى خلاص إسرائيل ، خلاصه ، واستردادها فى العصر المشيحانى استرداد لكمال الكون ، ورمز لوصوله إلى مرحلة الإصلاح والكمال » (٢) .

ولقد ساعد على هذا النزوع اليهودى إلى التفرد الاستعلائى حتى المطلق والنهائى يتخطى حدود الزمان والمكان ، مطلق ذاتى عند اليهود ، محصور فيهم ، ومقصور عليهم ، أى إنه ذو طابع قومى ، ومن ثم فهم إذا عدوا أنفسهم جماعة دينية فهم يعنون قبل كل شىء أنهم جماعة قومية ، لها تاريخها الخاص ، وعبادتها

(١) د. منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ٢٠ .
(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠ .

وتراثها الشعبى ، فإذا أضيف إلى ذلك الأساس الذى تبنى عليه كل الأركان فى العقل اليهودى الدينى والقومى = فكرة الشعب المختار ، وفكرة الأرض الموعودة، والإيمان بقدسيتها ، فإن الإيمان بكل ذلك ساعد على عزلة اليهود وإعلاء العنصرية القومية فيهم .

وفى سفر اللاويين (٢٠/٢٤ ـ ٢٦) « أنا الرب إلهكم الذى ميزكم عن الشعوب وتكونون لى قديسين ، لأنى قديس أنا الرب ، وقد ميزتكم عن الشعوب لتكونوا لى » .

إنهم يفكرون ويتحركون على أساس الإيمان بأنهم شعب مقدس ، وإن ربهم وحدهم رب قدوس ، وإنهم يستعلون على كل الشعوب .

ومن معتقداتهم هذه تولدت عقيدة «الماشيح» لتجمعهم من الشتات، لتعود بهم إلى أرض فلسطين ، إنه اعتقاد يلغى فيهم الإحساس بالانتماء إلى المكان الذى يعيشون فيه، ويجعلهم دائمى الحنين إلى الأرض الموعودة، أرض فلسطين، ينتظرون فيها « المشيح » الذى يحررهم من آثامهم ويضمن لهم الخلاص الأبدى » (١) .

ولقد اهتم الحاخامات بتوظيف العامل المشيحانى ليكونوا أحد العوامل المهمة والأساسية فى التفكير القومى لدى اليهود ، وقد أوجدهم فيه فقدان الاستقلال القومى والسياسى ، ومن هنا فهم يحرصون على أن يكون مفهوم « المشيحانية » = الخلاص مفهوم جماعى ، بحيث يحث اليهود ويحرضهم على تطلعات قومية .

ومع أن المشيحانية نشأت إحساسًا دنيويًا لا دينيًا ، إلا أنه أخذ يتلون باللون الدينى « القابالى » = الصوفى بادعاء أنه نبع عن النبوة الإسرائيلية ، ليكتسب قوته الإعجازية الخارقة للعادة ، التى تخلص اليهود من معاناتهم ، وتعودهم إلى الخلاص القومى بقيادة نبى قومى من نسل داود .

ولقد أدت هذه النبوءة إلى ظهور فكرة جديدة هى شخصية المسيح المخلص ، وهى شخصية دنيوية ذات رسالة دينية مؤيدة من رب يسرائيل ، ليكون صاحبها

---

(١) راجع : د. المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية ـ دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة ١/ ٤٤ ـ ٤٧، سلسلة عالم المعرفة رقم ٦٠ ، الكويت فى ديسمبر ١٩٨٢م .

قادرًا على تدمير كل قوى الشر التى تقف دون تحقيق اليهود لأملهم القومى بإعادة مجد داود مرة ثانية .

وعلى هذه القاعدة تم بعث الصهيونية الدينية فى العصر الحديث . ويرى د. رشاد الشامى ـ نقلاً عن بعض المراجع المسيحية أن بعث الصهيونية الدينية فى العصر الحديث كان بأفكار الحاخام يهودا القلعى (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨م) بالدعوة إلى الخلاص بالعودة إلى التلمود والقابالاة ، وبالعودة إلى فلسطين ، تحت زعامة قيادة بشرية دون ما انتظار للمشيح المخلص ، بإقامة مستعمرات يهودية فى فلسطين لكى تكون مقدمة لظهوره . ورأى يهودا القلعى أن الخلاص لا يمكن أن يأتى فجأة مرة واحدة ، وإنما ينبغى العمل بجد فى سبيله ، كما رأى أن هذا الخلاص الذاتى سيتم بالدعوة إلى عقد جمعية كبرى (كنيست) وقيام صندوق قومى لشراء الأراضى ، وهى الأفكار نفسها التى تبناها اليهودى العلمانى « تيودور هرتزل » فيما بعد .

لهذا فسر القلعى فى كتابه «الخلاص الثالث» الخلاص الجديد على أساس الاستيطان بفلسطين بقصد تعمير الأرض ، وإحياء اللغة العبرية ، وكان الحاخام القلعى لهذا ـ يطبق آراءه عمليا، فوضع كراسات لتعليم العبرية ، وكان دائم التنقل بين اليهود فى البلاد التى يسكنون فيها من أجل الترويج لأفكاره ، وهاجر إلى فلسطين فاستوطن فيها بدءًا من سنة ١٧٨٤ وبقى بها إلى أن مات فى سنة ١٨٧٨م.

ولقد شكلت أفكار الحاخام البولندى « تسفى هيرش كاليشر » ١٧٩٥ ـ ١٨٧٤م تأييدًا لأفكار « القلعى » فى دعوته إلى الاستيطان بفلسطين ، وفى كتابه «البحث عن صهيون » الذى صدر فى سنة ١٨٦٢م رأى هيرش كاليشر أن عذاب اليهود ، وشقاءهم هما امتحان إيمانهم ، وأن بداية الخلاص تكمن فى التطوع للذهاب إلى فلسطين بقصد الاستيطان لأن الاستيطان بأرض فلسطين المقدسة أهم وصايا التوراة » (١) .

---

(١) د. رشاد الشامى : القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة ، ص ٨٦ ، سلسلة عالم المعرفة ، رقم ١٨٦ فى يونيو ١٩٩٤م ، وأيضًا أديب ديترى : هزيمة العقل وجذور الصهيونية ، ص ٧٥ مجلة شؤون فلسطين ، العدد ٨٦ .

ويمكن القول: إن أفكار «القلعى وكاليشر» شكلت الصهيونية الدينية = المقدمة المطلوبة لبروز تيار الصهيونية الدينية داخل التجمعات اليهودية [1] ، كما أن أفكارهما مهدت للصهاينة العلمانيين طريقًا لتجريد مصطلح الصهيونية من محتواه الدينى الرافض لاستعجال العودة إلا مع المشيح المخلص ، وقصره على حركة الهجرة الصهيونية ليهود الشتات خاصة يهود أوربا إلى أرض فلسطين ، وإن ظلوا يحيطونه بهالة دينية حتى لا يفقد بريقه وجاذبيته التى تجعل يهود الشتات فى حالة شوق دائم إلى العودة إلى أرض صهيون .

ويعد كتاب « يهودا القلعى » وهو يهودى حاخامى « اسمعى يا إسرائيل » فى سنة ١٨٣٤م أول كتاب يصدر عن يهودى حاخامى ، أو عن يهودى علمانى يؤمن بأهمية التصميم على تحقيق العودة إلى أرض الآباء ، حيث دعا إلى البدء فورًا فى بناء المستوطنات لاستقبال المستوطنين اليهود تمهيدًا لإقامة دولة بنى إسرائيل ، مع أنه حاخام « قبالى » يؤمن بعودة المشيح من نسل داود ، ومن ثم فقد رأى د. رشاد الشامى : « أن البداية الحقيقية للصهيونية الدينية فى العصر الحديث تبدأ من «القلعى » الذى أيده « كاليشر » ، وهى أفكار صهيونية دينية ، مهدت الطريق لتيار الصهيونية السياسية .

ولقد بدأ « يهودا القلعى » يوجه الحركة الصهيونية الدينية فى مسار بشرى دنيوى بالعودة إلى التلمود ومرويات القابالاه للإعداد للعودة إلى أرض فلسطين تحت قيادة بشرية ، لأنه رأى ذلك أجدى من انتظار المشيح المخلص ، الذى سيطول انتظاره .

وكان القلعى ـ الذى كان حاخاما فى منطقة البلقان ـ يدعو اليهود لكى يثوروا من داخل أنفسهم على الإيمان بعقيدة « المشيح المنتظر المخلص » وهكذا رفع الحرج عن اليهود المتدينين ، وأفتى لهم بأنهم إذا عملوا من أجل العودة إلى أرض الميعاد بفلسطين واستيطانها دون ما انتظار للمسيح فإن الله سيساعدهم قال : « لقد أمر الله تبارك اسمه ، بأن تتم توبتنا عن طريق يقظتنا ، لكى نرفع من قيمتنا لديه ، وعندما يرى الله رغبتنا فى التوبة تمجيدًا لاسمه ، حتى ولو تم ذلك بحجم ثقب

(١) د. صبرى جريس : تاريخ الصهيونية ١/ ٧٦ .

إبرة فإنه سيرسل لنا نجدته ، ويفتح الباب على مصراعيه ثم يزيدنا عددًا وعدة ، ولهذا لا يمكننا الانتظار حتى يظهر المسيح ، ويعيدنا إلى أورشليم القدس » [1] .

ولم تكن حركة « يهودا القلعى » الذى كان يستوطن البلقان ، ثم فلسطين مقصورة على بلاد البلقان ، بل اتخذت شكلاً شموليًا ربطها بالواقع اليهودى فى كل بلاد أوربا ، فقد كان القلعى واعيًا بالواقع القومى فى أوربا الغربية ، والوضع المهيمن على يهود روسيا وبولندا باعتبار أن البلدين مخزون بشرى من اليهود الفقراء ، الذين يؤهلهم الفقر لكى يكونوا فى خدمة الحركة الصهيونية التى يمولها يهود الغرب الأثرياء .

كان « القلعى » فى ذلك مسايرًا للواقع الاستعمارى التقليدى ، ومن ثم أشار إلى أن هؤلاء اليهود الفقراء الذين ينقلون من روسيا وبولندا إلى أرض فلسطين على نفقة يهود غرب أوربا الأثرياء ، سيحولون أرض فلسطين الخربة الخالية من البشر - بزعمهم - إلى أرض مزدهرة ، تنتشر فيها المفاهيم الحضارية الحديثة .

وكانت الظروف مواتية ، ففى الوقت الذى كان القلعى فيه يفكر فى توطين اليهود بفلسطين ، كانت بريطانيا وحلفاؤها من الدول الكبرى يعملون على إعادة طرد جيوش محمد على من الشام ، فقد عقد فى لندن سنة ١٨٤٠م مؤتمر لندن ، وكان من بين بنوده إنشاء دولة يهودية فى فلسطين لحماية الشام من خطر ضم محمد على - حاكم مصر - أراضى الشام فى وحدة قوية تتبع الدولة المصرية .

ولقد قام « القلعى » بعد هذا المؤتمر ، الذى لم ينجح فيه بالحصول على دعم لإقامة الدولة اليهودية بفلسطين ، فأخذ يجول فى أوربا الغربية ويقابل أثرياء اليهود ليحصل على وعودهم ، بدعم هجرة فقراء اليهود إلى أرض فلسطين ، وفى الوقت نفسه كان يستغل تبحره فى التلمود والقابالاه لإقناع اليهود الفقراء بأن الهجرة إلى فلسطين فريضة دينية ، كما حاول إقناع سياسيى بريطانيا بأن قيام الدولة اليهودية سوف يخدم مصالح الإمبريالية الغربية ، وكانت خطته كما أوضحها فى

---

(١) د. أمين عبد الله محمود : مشاريع الاستيطان ، ص ٦٥، ٦٦ عن صبرى جريس ، تاريخ الصهيونية ، ص ٧٢ .

قوله : « يتوجب علينا [فقراء اليهود] بناء البيوت وحفر الآبار ، وزرع أشجار الكروم والزيتون ، وإنه لأمر فى غاية الأهمية أن يظل أثرياء اليهود يعيشون فى أرض الشتات ، لإمداد إخوانهم المستوطنين بما يحتاجون إليه من عون ومساعدة ، إننا لا نستطيع الهجرة على نطاق واسع لكى لا تصبح فى النهاية مثل البدو مبعثرين فى الخيام فى مختلف أرجاء الديار المقدسة ، الخلاص يجب أن يتم بأناة ، والأرض يجب أن يتم إعدادها وتحضيرها بالتدريج .

« أما الخلاص الذاتى التدريجى الذى دعا إليه « القلعى » فيلخص فى البنود التالية :

١ ـ الدعوة إلى عقد جمعية يهودية عمومية ، تضع دعائم تنظيم يهودى شامل يتولى إدارته مجموعة من حكماء اليهود ، ومع أنه سيكون أشبه « بالسهندرين » إلا أنه ينتخب من أثرياء اليهود الممولين للتنظيم ، ويقوم هذا التنظيم بتنظيم عملية استعادة فلسطين ، وإنشاء المستوطنات اليهودية بها .

٢ ـ إنشاء صندوق يهودى قومى لجمع التبرعات والمساعدات المالية من أثرياء اليهود لتمويل إنشاء المستوطنات ، وتحويل عمليات التهجير ، وشراء الأراضى وتمليكها للشعب اليهودى .

٣ ـ إنشاء صندوق تجمع فيه الضرائب من المستفيدين من عملية الاستيطان بالإضافة إلى ضرائب تحصل من يهود الشتات .

٤ ـ الحصول على قرض قومى من كل فئات اليهود لاستثماره فى إقامة مشروعات عامة فى فلسطين .

٥ ـ إحياء اللغة العبرية ، ولقد وضع « يهودا القلعى » بنفسه كتابًا لتدريس اللغة العبرية وقواعدها » [١] .

ولكى يكون الحاخام « يهودا القلعى » قدوة ليهود العالم ، فقد هاجر إلى فلسطين واستوطنها فى سنة ١٨٧٤م وظل بها إلى أن مات فى سنة ١٨٧٨م .

---

(١) راجع : أمين محمود عبد الله : مشاريع الاستيطان ، ص ٦٥ ـ ٦٩ ، ود. الشامى : القوى الدينية ، ص ٨٦ ـ ٨٩ ، ٩٠ ، د . منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ٢١ ، ٢٢ .

وكان كاليشر ١٧٩٥ ـ ١٨٧٤م متأثرًا بالقلعى ، وكان ثمة فرق بينهما ، أن القلعى قبل استيطان فلسطين ـ كان يعيش فى إحدى ولايات الدولة العثمانية ـ وكان اليهود فيها أكثر استقرارًا وأمنًا ، أما « كاليشر » فقد ولد فى بولندا ، وعاش توتر يهود روسيا القيصرية ، كما كان قريبًا من الحركة اليهودية الإصلاحية Reform Judaism ورفض دعوتها إلى الاستنارة بالمفهوم الغربى والاندماج فى الأغيار ، ولأن « كاليشر » عاش فى مجتمع قلق متهيج دائمًا ، فقد كان يشدد على ضرورة العودة إلى أرض الميعاد ، والاستيلاء على أرض فلسطين ولو بالقوة ، واستغل سلطته الدينية على فقراء اليهود ، فكان دائمًا يقنعهم بأن مجىء المسيح لخلاص اليهود مرهون بتجمعهم أولاً بأرض الميعاد « إرتس يسرائيل » قائلاً : ألق جانبًا الفكرة بأن المسيح سينفخ فى البوق العظيم فترتعد منه كل الأرض ، إن الخلاص لن يبدأ إلا بمساندة المحسنين ، وبكسب موافقة الأمم على لمِّ شمل اليهود خاصة الفقراء فى الأرض المقدسة .

إذن فإن الحكاية قديمة منذ عزرا ونحميا فى القرن السادس ق . م فقراء اليهود يعودون من منافى الشتات إلى أرض الميعاد لإعمارها بالاستيطان فيها ، وأثرياء اليهود يظلون فى الشتات ، لكى يكونوا قادرين على دعم العودة بالمال ، على أن تقوم الدول العظمى بتأمين حمايتهم وتأييدهم ـ كما فعلت دولة الفرس فى القرن الخامس ق . م ، وكما تفعل الولايات المتحدة الآن .

وفى سنة ١٨٦٢م أصدر « كاليشر » كتابه : « البحث عن صهيون » وكان القسم الأكبر منه فى الحديث عن أهمية العمل اليدوى لكى يتعود اليهود على العمل اليدوى خاصة الزراعى منه ، لأنه مهم من ناحيتين هما :

الأولى : إن العمل الزراعى وثيق الصلة بالاستيطان ، وفى توفير الغذاء .

الثانية : فرض تصور يوضع أمام العالم يؤكد أن اليهود قادرون على العمل اليدوى والزراعى بصفة خاصة ، وأن زمن التطفل على العالم بالأعمال التجارية والربوية التى لم يكن اليهود يجيدون غيرها قد انتهى ، كذلك ليبينوا للعالم أنهم كانوا فى الماضى مضطرين لأعمال بعينها فرضت عليهم ، لأنهم لم يكن لهم أرض

يملكونها فيزرعونها ، أما الآن فقد عادوا إلى أرضهم ، وعليهم أن يعمروها بالعمل الزراعى .

كان « القلعى وكاليشر » أهم حاخامين وظفا الثقافة اليهودية الدينية الصهيونية لخدمة الصهيونية السياسية ، ثم سار على نهجهما الرابى « شموئيل موهيلفر » (١٨٢٤ ـ ١٨٩٨م) وكان متأثرًا بـ كاليشر بصفة خاصة ، ومتعمقًا فى (القابالاة) و« الحسدية » كما كان أحد زعماء حركة « أحباء صهيون » هاجر مع جماعة من أتباعه إلى فلسطين وشاركهم فى تأسيس مستوطنة (رحوفوت) ، ووطد صلته بالثرى اليهودى الفرنسى (أدموند روتشلد) واستطاع أن يقنعه بتمويل الاستيطان اليهودى بفلسطين .

وكان الرابى (شموئيل موهيلفر) من أوائل الصهاينة الدينيين تعاونًا مع الصهاينة العلمانيين وكان يقول : « إن الله يفضل أن يعيش أبناؤه فى أرضهم حتى ولو كانوا لا ينفذون تعاليم التوراة ، على أن يعيشوا فى المنفى وينفذوا تعاليمها ».

وبعد هؤلاء جاء الرابى (أفراهام يتسحاق كوك ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) مؤسس مدرسة (مركاز هراف) الدينية وتجمع أفكاره وكتاباته مختلف الاتجاهات الصهيونية فى الدين والسياسة ، حتى تلك المناوئة للدين اليهودى ، فهو « رابى ذرائعى » استطاع أن يسخر خبراته ـ وفى مقدمتها تبحره فى (القابالاة) لخدمة الأهداف الصهيونية ، وأفتى بأن جيل المستوطنين الرواد فى فلسطين ينتمون إلى جيل (المشيح المخلص) بالرغم من أن أغلبيتهم لا دينيون ، وزعم أن فتواه صحيحة ؛ لأن هؤلاء الذين قال فيهم : إنهم ينتمون إلى جيل (المشيح المخلص) نفذوا تعاليم التوراة باستيطانهم فى فلسطين ، لأن أرض الميعاد ـ فيما زعم ـ هى مركز التقاليد الدينية اليهودية والقومية على حد سواء ، ولهذا كان يركز على :

١ ـ إعطاء معنى دينى حقيقى لمركزية أرض إسرائيل فى الحياة اليهودية .

٢ ـ تنمية الإدراك الحسى للعلاقة بين الدين اليهودى ، ونشاط الصهيونية العلمانية .

٣ ـ إعطاء أهمية عالمية للنهضة اليهودية من خلال نظام الفكر الدينى [١] .

وترجع أهمية أفكار هؤلاء وفتاواهم ـ خاصة « القلعى وكاليشر » إلى أنها فتحت الباب أمام عامة اليهود المتدينين الذين كانوا يؤمنون بضرورة مجىء (المشيح المخلص) أولاً ليقودهم إلى أرض الميعاد ، لكى يوافقوا على إمكانية أن يكون الخلاص قبل مجىء (المشيح) ، ولكى يتحول الخلاص اليهودى إلى خلاص بشرى باستيطان أرض الميعاد ، وكان مجرد القول بذلك فى الأوساط الدينية اليهودية هرطقة غير مسموح بها ، ومن هنا فإن فتاوى هذين الحاخامين « شكلت المقدمة المطلوبة لإعلاء شأن تيار الصهيونية الدينية داخل التجمعات اليهودية» [٢] ، وهى فتاوى ذرائعية لا تضع شرطًا لظهور (مشيح) يهودى مخلص من نسل داود، لكى يقود اليهود إلى أرض الميعاد ، وتضع أمام أعينهم حقيقة أن خلاصهم فى هجرة أعداد غفيرة من يهود الشتات إلى الأرض الموعودة بفلسطين لاستيطانها والقرار فيها إلى الأبد .

ولقد سعى هؤلاء الرابيون ـ وهم يصنعون فتاواهم الذرائعية إلى الاستعانة بالتلمود والقابالاة ، وكلام من سبقوهم ممن لقبوا بحكماء اليهود لتأييد وجهة النظر الداعية إلى الاستيطان قال « كاليشر » بصراحة : « إن العقل والشريعة يلزمان كل يهودى بالعمل بمنتهى الشجاعة والقوة والتصميم من أجل الاستيطان اليهودى بأرض فلسطين » [٣] .

ولقد أدت هذه المقدمات الصهيونية الدينية الذرائعية دورًا مهمًا فى قيام الكيان الصهيونى، وأعطته دعمًا دينيًا لدى التيارات الدينية والتيارات العلمانية على السواء، بل عززت دور الصهيونية السياسية العلمانية بدعوى جعل « أرض يسرائيل » أساس الإيمان اليهودى ، وعن هذا الإيمان الذى صار مقبولاً بواسطة الصهيونية الدينية ،

---

(١) راجع كل من : د. الشامى : القوى الدينية فى إسرائيل ، ص ٨٧ ـ ٩٠ ، ود. منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) الفكرة الصهيونية ، النصوص الأساسية ، ص ٢٧٩ ، تحرير أنيس صايغ ـ ترجمة لطفى العابد وموسى عنزة مركز الأبحاث م.ت.ف ، بيروت ١٩٧٠م .

(٣) أمين عبد الله محمود : مشاريع الاستيطان ، ص ٩١ نقلاً عن هرتزبرج الفكرة الصهيونية نيويورك ١٩٧٠م.

وجعلها تتكيف مع الوضع القائم فى إسرائيل بعد قيامها ، ومع أن القائمين على الأمور فى الكيان الصهيونى من العلمانيين اللادينيين إلا أنهم يقولون : « نحن لم نتوقع قيام دولة يهودية ذات طابع علمانى ، لكنها على أية حال فى وضعها القائم تمثل من وجهة نظرنا معجزة من الله ، وينبغى أن نفهم جيدًا أن وظيفتنا التاريخية تتمثل الآن فى المشاركة فى بناء الدولة ، ودفعها مستويات روحية أعلى »[1] .

كان الالتقاء الأول بين الصهيونية الدينية ، والصهيونية السياسية فى أثناء انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل فى سنة ١٨٩٧م فقد أرسل (الرابى موهيلفر) ١٨٢٤ ـ ١٨٩٨م) إلى المؤتمر يؤيد جهود الصهيونية السياسية فى إقامة وطن قومى لليهود ، وقد ربط بين الجهود بمفهوم الخلاص فقال : « لقد انقضى ما يقرب من ألفى سنة ونحن ننتظر قدوم (المشيح) الذى يخلصنا من سبينا المرير ، ويجمع إخوتنا المشتتين فى أركان الأرض الأربعة، حيث نعيش هناك تحت رعايته ، ويعيش كل يهودى فى ظل كرامته، وبيئته ، إن هذا الإيمان عميق فى قلوبنا ، وكان عزاؤنا الوحيد فى العصور الطويلة التى عانينا فيها من العذاب والاضطهاد ، وبالرغم من أن هذا القرن الأخير قد شهد ظهور رجال من بيننا أنكروا هذه العقيدة، ونزعوا إيماننا من قلوبهم كما حذفوه من كتب صلواتهم ، لكن (الحريدم = المدارس الدينية) الموجودة بيننا ، وكل أبناء الشعب لا يزالون متمسكين بهذا الأمل ويصلون من أجله طوال اليوم ، ويجدون فيه العزاء لروحهم المشردة ، وقد قام مؤخرًا بعض الرابيين فى غرب أوربا وأعلنوا أن كل وعود السعادة الأبدية التى تنبأ بها أنبياؤنا ليست إلا رموزًا استعارية ، مؤكدين أن قدوم المشيح لا يعنى أنه أتى ليعيد إسرائيل لأرض آبائه ، أو لكى يضع نهاية لسبيه الطويل وأحزانه الكثيرة ، بل إنه سيأتى لكى يصلح كل أنحاء العالم فى مملكة الرب ، أما شعب إسرائيل فسيبقى فى منفاه نورًا لكل الأمم كما هو حاله الآن ، كما أعرب بعض من أولئك الرابين عن رأيهم باختصار بأن القومية تتعارض مع إيمانهم بقدوم (المشيح) وإننى أود أن أعرب عن رأيى لكل الشعب بأن ذلك القول ليس صحيحًا ، إن إيماننا وأملنا كان دائمًا ولا يزال هو : أن (مشيحنا) سيأتى ، وسيجتمع مشتتو يسرائيل

(١) د. رشاد الشامى : القوى الدينية فى إسرائيل ، ص ٩٣ .

إلى أرض الآباء ، بدلاً من من وضعنا كمشتتين فى بلاد غريبة ، وسوف نسكن حينئذ فى أرضنا ، ونصبح شعبًا بكل ما تعنيه هذه الكلمة وما تحمله من معنى ، وبدلاً من أن تكون فى موضع احتقار وسخرية فى عيون الشعوب ، ستحترمنا كل شعوب العالم وتمجدنا ، هذا هو إيماننا وأملنا الذى أعرب عنه أنبياؤنا ، وحكماؤنا طيبو الذكر ، وهو ما يتمسك به شعبنا » (١) .

ثم جاء دور الحاخام يتسحاق يعقوب رانيس (١٨٣٩ ـ ١٩١٥م) وكان من أهم المتعاونين مع (تيودور هرتزل) فى الحركة الصهيونية ، ومؤسس حزب المزراحى، وكانت السمة المميزة لنظريته: « المزج الكامل بين وجهة النظرية الدينية، وبين الصهيونية السياسية الهرتزلية بالذات » (٢) ، لدرجة أنه أيد هرتزل يوم اقترح أن تكون أرض أوغندا ، الأرض التى يمكن أن تقوم عليها الدولة القومية اليهودية، إنه موقف دينى يتحد ، بل يحل فى موقف سياسى بحت .

كان الحاخام رانيس مؤيدًا للمشروع الصهيونى بخطط (هرتزلية) الذى كان بعده مبعوث العناية الإلهية لخلاص الشعب اليهودى ، ومع أن أوغندا التى اقترحها (هرتزل) فى أول الأمر لتكون وطنًا قوميًا لليهود ليست أرضًا مقدسة بحكم التوراة إلا أن الحاخام رانيس رأى أنه يمكن أن يمنحها توجه الشعب اليهودى إليها القداسة لأن التوجه إليها يكون بمثابة القوة المدافعة عن طائفة اليهود ، وعن معاداة السامية مع علمه بجاذبية فلسطين المشحونة بالإيمان الدينى ، وبفكرة الخلاص المشيحانى ، ومن هنا فقد رأى أن المشروع الصهيونى ـ بأى أرض ـ سيكون بداية الخلاص الذى يمكن أن يتحقق فى أرض قومية فى فلسطين،أو بعيدًا عن فلسطين، وسيكون جزءًا من تحقيق النبوءة المشيحانية وتجسيدًا لها .

ومع أن الفكر الصهيونى لا يحاول أن يوازن بين أفكار (القلعى وكاليشر) من جهة ، ورانيس من جهة أخرى ـ لكن يؤكد الواقع فقط ـ فإن القلعى وكاليشر

---

(١) د. منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ٢٥٢ نقلاً عن شموئيل موهيلفر : هارعيون هتسيون = الفكرة الصهيونية ، ص ٣١١ .

(٢) اليعزر دون ياحى : مبحث الأيديولوجية والسياسة ـ النظرية الصهيونية للحاخام رانيس ، ص ١١٤ ضمن مباحث : الصهيونية الدينية .

كانا من أوائل الصهاينة المتدينين المنادين بالعودة إلى صهيون ، فى الوقت الذى لم تكن هناك حركة صهيونية تعمل من أجل تجميع اليهود ونقلهم إلى فلسطين ، لقد كانا يريان ـ قبل هرتزل ـ فى التيار الصهيونى حركة دينية فى جوهرها يمكن أن تحقق الخلاص لليهود .

أما الحاخام رانيس فقد وجد حركة صهيونية سياسية قائمة فى الواقع العملى يقودها علمانيون يحددون أهدافها السياسية البحتة ، ولكنه أراد أن يضفى عليها صفة دينية ، وكان أخطر أعماله فيها أن يدافع عن أهدافها ضد الحاخامات الأرثوذكس المعارضين ، الذين لا يستعجلون الخلاص ، قبل قدوم (المشيح) وكان لا يمانع فى أن يضم رؤيته لرؤية (هرتزل) فى أن يختار البديل العلمانى الذى لا يرتبط بالتقاليد التوراتية ـ ثم بعد ذلك يمكنه أن يضفى عليه طابعًا دينيًا .

ولهذا كان الحاخام رانيس يسأل : لماذا لا يكون أى خلاص ـ ولو بأيدى علمانية ـ ذا مفهوم دينى خالص،وهو هنا لا يلغى فكرة الخلاص الدينى التقليدى، ولكنه يقبل أن يتحقق الخلاص بقيادة زعماء علمانيين ، ولو كان خلاصًا ماديًا سياسيًا بحتًا .

ولا يربط رانيس بين الفكرة الصهيونية فى الدولة القومية ـ والخلاص الدينى التقليدى ولكنه حاول الدفاع عن الصهيونية (الهرتزلية) على أساس أنها حركة هدفها العملى هو استعادة حق اليهود فى فلسطين ، وفى الدولة القومية .

وهكذا بذرائع الرابيين حلت الصهيونية الدينية المشيحانية فى الحركة الصهيونية السياسية العلمانية ، فاستيطان الأرض بحسب ذرائعهم ، هى نفسها فكرة الخلاص المشيحانى ، وهو ما عبر عنه الرابى الصهيونى ليفنتال بقوله : « تمثل الصهيونية الرداء الحديث للأصل المشيحانى القديم الذى حفظ اليهود أحياء خلال العصور الماضية إنه الأمل الذى يهدف إلى تحقيق شقين ـ كما يقول الأنبياء : فهو يهدف إلى إعادة اليهودى لحياته القومية فى أرضه الوطنية بفلسطين ، كما أنه يهدف إلى إعادة إنشاء إسرائيل الذى يساعد على إعادة خلق البشر جميعًا » [1] .

---

(١) د. منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ٢٥٢، ٢٥٣ .

ويمثل هذا الاتجاه الآن فى الكيان الصهيونى الأحزاب الدينية مثل :

١ ـ المفدال : الحزب الدينى القومى .

٢ ـ الحركات الدينية مثل = كاخ ـ وجوش أمونيم .

وهى أحزاب دينية ، وحركات تسعى إلى طرد جميع العرب الفلسطينيين من أرضهم ، وتوطين كل أرض فلسطين باليهود ؛ لأن الاستيطان اليهودى الكامل لأرض فلسطين يمهد لظهور المشيح اليهودى المنتظر ، وعصر السيادة الصهيونية المطلقة فيما يزعمون .

وإذا قيل من بعض الحاخامين الأرثوذكس المتمسكين بنص التوراة ، إن هؤلاء الحاخامين قد تنازلوا عن كثير من تعاليم التوراة ، لكى يقتربوا من الصهيونية السياسية غير الدينية ، فإن ذلك صحيح من وجهة نظر الحاخامية الدينية ، لكن الواقع يؤكد أهمية دورهم فى إقامة الكيان الصهيونى ، ومع أن الآراء قد تباينت فى تقدير قيمة دورهم فى الحركة الصهيونية ، فقد كان (هرتزل) نفسه يقدر دورهم للغاية ، ويقدر ما لديهم من قوة تأثير فى تحريك عامة اليهود ، وتوجيههم إلى أرض فلسطين ، ولهذا التقت أفكارهم ، مع أفكار الصهاينة العلمانيين الذين كانوا ينظرون إلى الصحوة اليهودية القومية باعتبارها « ثمرة شعور بالخطر الحقيقى على مستقبل اليهود فى أوربا ، وهو خطر مادى بحت » (١) ، وليس على أنها ثمرة ولع طوباوى بالماضى ، كما هو الحال عند المتدينين اليهود .

وإلى اليوم لا يزال تأثير الصهيونية الدينية قويًا فى يهود الكيان الصهيونى ، ويفيد منهم القادة الصهاينة ـ سياسيًا فى كثير من المواقف الذرائعية التى تساند المواقف السياسية لحكومات الكيان الصهيونى المتتابعة ، وخير مثال على ذلك ـ وضع الحاخام (رتسيا ابن الحاخام إفراهام يتسحاق كوك) ـ فراتسيا ينقل الفكر الصهيونى الدينى الذرائعى إلى فكر الواقع الصهيونى ، بتفسير الشريعة بشكل عملى يتسق مع الموقف الأيديولوچى السياسى فى داخل الكيان الصهيونى ،

---

(١) الصهيونية الدينية ـ مدخل تاريخى ، ص ٣٦ تحرير أنيتا شابيرا ـ الناشر : مركز الداراسات الشرقية ـ جامعة القاهرة ، العدد ٣ مارس ١٩٩٨م .

ومتغيرات السياسية الدولية فى كل من البلاد الغربية والبلاد العربية ، فلقد تغير موقف الصهيونية من مفهوم أرض إسرائيل الكاملة، فهم فى الماضى كانوا يعملون ـ دينيون وعلمانيون ـ من أجل الوصول إلى أرض فلسطين واستيطانها .

أما الآن فهم يملكون معظم الأرض ، ولكن يشاركهم على جزء صغير منها من بقى من العرب الفلسطينيين الذين لم تطلهم الإبادة ، وتمسكوا بأرضهم ولم يغادروها والصهاينة ينظرون إلى هؤلاء ، ليس على أنهم مجرد أغيار ـ ولكن على أساس أنهم أجانب يحتلون جزءًا من أرضهم ـ بحسب المزاعم الصهيونية ، ومن هنا فقد طرحوا السؤال التالى : هل هذا الاحتلال لجزء من الأرض اليسرائيلية ـ يكسبهم (أى هؤلاء العرب المحتلين) هذه الأرض التى يسكنون فيها .

هكذا يدعون مع أنها قطعة أرض ضئيلة جدًا بالقياس إلى المساحات التى اغتصبوها من عرب فلسطين .

ثم يطرحون سؤالاً آخر : هل وجودهم على قطعة الأرض المحتلة هذه يكسبهم حقًا فيها ؟

إنهم يختلقون أكاذيب لا صحة فيها ، ويريدون أن يحولوها إلى حقيقة فبدلاً من أن تكون الحقيقة أنهم اغتصبوا أرضًا عربية ، تكون الأكذوبة فى أن عرب فلسطين يحتلون جزءًا من أرضهم، وكل الصهاينة من دينيين، وعلمانيين، وعسكريين ومدنيين يتبنون أكذوبة أرض إسرائيل الكاملة ، ويعدونها موقفًا شرعيًا ، ويقف الحاخامات وراء هذه الأكذوبة بفتاواهم الشرعية التى يحملها قولهم : لا يجب تسليم الأجانب أى جزء من أرض إسرائيل الواقعة تحت السيطرة اليهودية » (١) .

وهى فتوى مستمدة من التلمود من عبارة وردت فى التلمود تقول: «لا تشفق عليهم » وأن التوراة قبل التلمود تحرم منحهم ولو شجرة واحدة ففى (سفر التثنية ٣/ ١٨) « وأمرتكم فى ذلك الوقت قائلاً : الرب إلهكم قد أعطاكم هذه الأرض لتملكوها » . (وفى السفر نفسه ٧/ ١ـ٢) « ومتى أتى بك الرب إلهك إلى

(١) أرييه نيئور : مفهوم أرض إسرائيل الكاملة ، ص ٥ ، ترجمة : د. أشرف الشرقاوى ، مجلة مختارات إسرائيلية ، العدد ١٠٩ يناير ٢٠٠٤ ، مركز الدراسات السياسية ـ الأهرام .

الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوب كثيرة من أمامك . . . ودفعهم الرب إلهك أمامك ، وضربتهم فإنك تحرمهم لا تقطع لهم عهدًا ، ولا تشفق عليهم » .

كانت هذه التعاليم لموسى عليه السلام ولكن الذى نفذها يشوع عندما دخل أرض كنعان ، فأباد كل من فيها ، وكل ما فيها وتحريم الأرض عليهم بدون رحمة .

إذن ما العمل فيمن لا يزالون بالأرض ، ولم يقدروا على طردهم ، كما فعلوا مع من تم طردهم من الأرض فى سنة ١٩٤٨م . إنهم سيطردون حتمًا إذ إن طردهم حتمية شرعية فى العقيدة اليهودية ، وإن إقامتهم الحالية إقامة مؤقتة ، ويتفق الأغلبية من الدينيين والعلمانيين والعسكريين والمدنيين فى الكيان الصهيونى على ذلك ، هذه سياسة محددة ببعديها الشرعى والسياسى .

ومع أنهم يلتمسون هذا التأويل لنصوص التوراة لتأخذ فتاواهم صبغة شرعية، إلا أن الحقيقة تؤكد أن فتاواهم الدينية لا تصدر إلا تعضيدًا لموقف سياسى اتخذ مسبقًا ، ثم يقوم الحاخامات بالبحث عن مبررات له بتأويلات من التوراة أو التلمود ، أو من أى كتاب من كتبهم الدينية ، خاصة بعد سنة ١٩٦٧م فقد استولوا على أرض وسيعة يمكن أن تحقق لهم حلم الأرض التوراتية كما ورد ذكرها فى سفر التكوين ١٥/١٨ من وادى العريش إلى الفرات .

وإذا كان السياسيون العلمانيون من الصهاينة فى الكيان الصهيونى ، يرون حتمية وحدة الأرض أمرًا ملزمًا لكل من يعيش عليها من اليهود لأسباب أمنية ، فإن الدينيين من الصهاينة يرون أن ذلك أمر ملزم لأمور شرعية ، وأن عدم الالتزام بذلك يكون بمثابة عدم شكر الرب ، بل جحود ونكران لنعمته ، التى أنعم بها على بنى إسرائيل من دون الشعوب السبعة التى كانت تسكنها قبل أن يدخلها يشوع وهم : الحيثيون ، والجرجاشيون ، والأموريون ، والكنعانيون ، والفرزيون ، والحوسِّيون ، واليبوسيون . (= الكنعانيون) (سفر التثنية ٧ / ١ ـ ٦) .

فالأرض مقدسة لشعب مقدس ، وكل منهما حالّ فى الآخر ، ولكى يظل هذا الشعب مقدسًا ، يجب ألا يفرط فى تلك الأرض المقدسة التى باركها الرب

بنفسه ومنحها لشعبه المختار ، فإن فرط فيها يكون قد كفر بنعمة الله فاستحق غضبه ، فيهلكه ، وفى هذا يقول الحاخام (يعكوف موشى) : « إذا وصلت الأمور ـ لا قدر الله ـ إلى حد اضطرارهم [السياسيين] إلى التوقيع على معاهدة بين الشعبين [اليهودى والعربى] تتضمن أى تنازل عن جزء من حقنا فى أرض إسرائيل ، فمن الأفضل لمن يوقعونها أن يقطعوا أطراف أصابعهم ، ولا يقتطعوا جزءًا من زرع بستان فقد خلقت أرض صهيون من بهاء وجه الرب » (١) .

ويقصد الحاخام يعكوف أن يكون القطع قبل التوقيع لا بعده ، حتى لا يكون لمن يوقعون أصابع يوقعون بها ، ولهذا يقول أو يفتى : « من يخالجه أدنى شك فى أن أرض إسرائيل ملك لشعب إسرائيل ما عدا شبرًا واحدًا يعد كافرًا ؛ لأنه ينتقص من قدسية هذه الأرض » (٢) .

وفى مدرسة « مركاز هاراف » الدينية ترسى دعائم مقولة وحدة الأرض المبنية على تعاليم دينية من التوراة والتلمود ، وحتى كتب الهجداه (القصص والأساطير الدينية) طورت دراسات قدسية الأرض ، ورأت أن كمالها بعدم التقسيم ، وتزعم هذه المدرسة أن قدسية الأرض وكمالها ، هو الاختيار الأكبر لمن يملك القرار فى دولة الكيان الصهيونى يقول الحاخام كوك : « إن أرض إسرائيل ، هى أرض تكفل الحياة لشعب إسرائيل ، وهى بالنسبة لبنى إسرائيل مثل أعضاء الجسد ، التى ترتبط بها الروح ، وأى انتقاص منها يعرض الشعب للموت (٣) . أى إنه يمثل العدم للكيان الصهيونى .

ولقد رسخت مدرسة (مركاز هاراف) الدينية هذا المعتقد فى نفوس تلاميذها ليس فى جيل واحد ، ولكن فى كل أجيال الصهاينة ، منذ وطئت أقدامهم أرض فلسطين .

وفى المدارس التلمودية التى أنشأها الحزب القومى الدينى ، نما الغلو الدينى . يقول الحاخام زفاى يهودا كوك ١٨٩١ ـ ١٩٨٢م : « سوف يكمل الرب وعده

---

(١) أرييه نيئور : مفهوم أرض إسرائيل الكاملة ، ص ٧ .

(٢، ٣) أرييه نيئور : مفهوم أرض إسرائيل الكاملة ، ص ٧ ، ٨ .

بالخلاص لعودة المسيح إلى حكم الأرض بهذه المعجزة ، بأن يضع كل الأراضى تحت السيادة اليهودية ، إن كل أراضى العهد اليهودى أراض مقدسة ، هناك توكيل إلهى بالحفاظ عليها وضمها ، وتأسيس أكبر عدد ممكن من المستعمرات اليهودية عليها ، وأى تنازل عن هذه الأراضى يؤجل عصر حكم الرب على الأرض » .

ويقول الحاخام اليعازر مزراحى : « من غير المسموح به للشعب اليهودى التنازل عن شبر واحد من أراضى إسرائيل الكبرى للعرب ، أو الدخول معهم فى أية مفاوضات تخص هذا الأمر » (١) .

وحكومة الكيان الصهيونى ـ بمساندة هذه الفتاوى الدينية الصادرة عن الحاخامات لا تلجأ أبدًا إلى رسم حدود لدولتها ؛ لأن أرض إسرائيل التوراتية لم يتم الاستيلاء عليها بعد بزعمهم ـ بطرد غير اليهود منها ، ومنها الأردن بضفتيها ، وجزء من سوريا الجولان حتى دمشق ، وسيناء وجزء من شمال الجزيرة العربية ، وجنوب لبنان ، ومن هنا تكمن مشكلة الأرض التى تطأها أقدام الفلسطينيين ، والأردنيين ، والسوريين ، واللبنانيين ، والمصريين ، وبقية من عرب الجزيرة العربية ، وكلهم غير يهود .

ولقد أفتى الحاخام رتسيا ابن الحاخام كوك بما يلى : « إن التحريم التوراتى مؤكد ، وورد له شرح فى تفسيرات الحاخام موشى بن نحمان الأب الروحى لبنى إسرائيل استنادًا إلى التلمود الأورشليمى الذى ورد فيه : « لا تبع بيعًا دائمًا » من يحوز الأرض ولا يسلك فيها مسلكًا فى تقريب بواكير الزرع لمدة عام هم غير يهود، ولكن تحرص على أن يكون البيع مشروطًا بردها إلينا بأى حال من الأحوال ، ولا تتركها لهم للأبد ، وحيث إن الأرض للرب ، ولن يريد أن يتركها لغير اليهود = الأجانب المقيمين معنا ، ولن يرغب أن يبقى فيها أحد غيرنا ، فيجب أن تبقى فى أيدينا ، وأن تعود إلينا » (٢) .

---

(١) جارودى : أميركا طليعة الانحطاط فى العالم ، ص ٢٩، ٣٠ ، دار الشروق ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

(٢) أريبه نيئور : مفهوم أرض إمرائيل الكاملة ، ص ٩ .

الأرض لهم ـ بزعمه ـ منحة الرب ، لا يجب التفريط فيها ، ومع أن قضاء الله قضى بإبعادهم عنها ، ولم يقدروا على استردادها كاملة ، فإن الله وعد الرب بتمليكهم إياها سيعيدها إليهم لتبقى فى أيديهم ، وعند ذلك يحرم عليهم التفريط فى شبر منها ، وإذا كانت الحكومات العلمانية تركت جزءًا صغيرًا من الأرض لغير يهود ، فإن ذلك محرمٌ شرعًا ، وهذا يعنى من وجهة نظر (مركاز هاراف) وهى رؤية دينية بحتة ، وكذا (مناحم بيجين) القومى القح أن التقسيم أمر طارئ ومؤقت وغير ملزم ، لأنه تصرف محرم شرعًا ، ولأنه تم بسبب غير شرعى ، فيلزم العمل بالقوة لإعادته إليهم .

ولقد ازدادت هذه العقيدة تشددًا بعد هزيمة العرب فى حرب سنة ١٩٦٧م إنه رفض دينى بالتنازل عن أى جزء من الأرض ، ويعد التفريط فى أقل جزء منه خطأ كونيًا ، والإنسان اليهودى لن يصل إلى كماله إلا إذا حافظ على الأرض الذى عاهد الرب عليها ، وعلى أن يحافظ عليها شرطًا تعاقديًا عند المنح ، وبذلك ترتبط التجربة الدينية عند اليهودى ، بالإيمان بمنحة الرب ، والتجربة القومية بالحفاظ عليها ، كما ورد فى سفر الخروج (١٨/١٥) : « العهد بين الرب وإبراهيم ـ وفى سفر التثنية (١/٧ ـ ٦) تجديد العهد بين الرب وموسى ومن يأتى بعده ويلزمهم بالمحافظة عليها .

هذا التفسير الدينى مهم جدًا للصهيونيين القوميين اللادينيين ، فهو الذى يبرر لهم ذرائع السيطرة على الأرض ، ويبرر لهم المسلك السياسى المنسوب إلى الرب ، الذى يوجب الولاء الكامل لكل أرض إسرائيل التوراتية ، وكل من يعيش بالكيان الصهيونى من دينيين توراتيين أو علمانيين قوميين لا دينيين يوظفون الثالوث الذرائعى : التوراة والأرض والشعب تجليًا لوحدة الرب ـ رب إسرائيل ـ لا رب كل الشعوب فى وحدة مقدسة ، ومن ثم فهم جميعًا لا يعترفون بقرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٩٤٧/١١/٢٩م ولا يزال الحاخام رتسيا يحلم بضم ضفتى الأردن ، وكل الأرض الفلسطينية يقول فى ذلك: «كان القرار يرتبط بقوة غيبية ، ولقد حكى لتلاميذه فى خطبة دينية فى مدرسة (مركاز هاراف) عن ذكرياته فى تلك الليلة ، ليلة صدر قرار التقسيم من الجمعية

العامة فقال : « فى الوقت الذى كانت الجماهير تنطلق فيه للرقص فى شوارع المدينة كنت أجلس وحدى فى منزلى وقد أصابنى الهم والغم » .

إن حكام شعوب العالم فى الأمم المتحدة ـ لا الرب ـ على حد قولهم ـ هم الذين قاموا بإصدار قرار التقسيم ، ومن هنا فقد كان الحاخام رتسيا يعد حرب سنة ١٩٦٧ المحطة الثانية لقطار الخلاص .

ثم إن الأمر لم يقف عند مزاعم الحاخامات الدينيين ، والعلمانيين اللادينيين القوميين فى الكيان الصهيونى ، بل تعداه فى المواقف الأميركية ، ومناوراتها فيما أطلقت عليه خطة السلام، وما هى بسلام ؛ لأن المتفق عليه لدى الولايات المتحدة الأمريكية ، والكيان الصهيونى ، ألا يعطى للعرب سوى قطعة صغيرة جدًا من أرض فلسطين أقل من ٦٪ من الأرض المغتصبة ، وهذه القطعة الصغيرة جدًا من الأرض إن حدث وأعطيت للفلسطينيين باسم حكم ذاتى تحت السيادة الصهيونية ، لن تكون خالصة لهم ، بل مزدحمة بالمستوطنات التى ستلتف حول مساكن العرب الفلسطينيين ، كما يلتف ثعبان ضخم حول جسد فريسته لكى يهصرها ، قبل أن يفترسها ، ولن تكون سوى معزل يعزل فيه من تشبث بأرضه من الفلسطينيين ـ رحمهم الله .

ثانيًا : الصهيونية السياسية

عندما بدأت الصهيونية السياسية تنفذ مخططها الاستيطانى ، أخذ القائمون عليها نبذ الصهيونية الدينية ، وفكرة أرض الميعاد ، وفكرة المشيح المخلص ، وبدؤوا يفكرون عمليًا فى كيفية الاستيلاء على أرض فلسطين ، وكيف يفرغونها من أصحابها ، من أجل إحلال يهود بدلاً منهم ، وبنوا خطتهم على أساس علمانى بحت على طريقة الفكر الاستعمارى السائد فى الغرب الأوربى ، ذلك أن اليهود مادة بشرية ، وهم جزء من الطبيعة المادية يمكن أن يستوطنوا أرض = مادة من الطبيعية أيضًا .

وبدأ (هرتزل) يوجه سهامه لعقيدة (المشيح المخلص) أى نبوءة العودة إلى أرض الميعاد التوراتية ؛ لأنها ستعطل سير مشروعه ، وكان هرتزل يصف الرؤى القديمة بأنها رؤى متخلفة ، كما وصفها بن جوريون فيما بعد بالسلبية ، وطرح بدلاً منها العودة بقوة السلاح ، بمساعدة القوى العظمى فى الغرب لتأسيس الدولة اليهودية » (١) .

لقد غير هرتزل ومن جاء بعده من الصهاينة السياسيين طبيعة المشروع الصهيونى الدينى ، وحولوه إلى مشروع صهيونى سياسى له خصائص المشاريع الاستيطانية التى تقوم على :

١ ـ تفريغ أوربا من اليهود ، وفى ذلك فائدة تعود على الدول الغربية التى ترى فى وجود اليهود بها عبئًا ثقيلاً عليها ، كما أن فيه فائدة عظمى تعود على الصهيونية .

٢ ـ إن فى هذا المشروع = تفريغ أوربا من اليهود ، وإحلالهم بفلسطين دعم سياسى ومادى متبادل ، فسيشغل الكيان الصهيونى كل البلاد فى المنطقة عن

---

(١) انظر : د. عبد الوهاب المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية ٦/ ٢٧٤ .

الأخذ بالتنمية فى كافة المجالات ، فتظل متخلفة فى غياب عن الوعى بأهداف الإمبريالية الغربية حيالها ، وبالمقابل فإن الدول الغربية العظمى المستفيدة من وجود الكيان الصهيونى بالمنطقة العربية ـ تمد الكيان الصهيونى بالسلاح الذى يضمن تفوقه على العرب عسكريًا ، وبالتكنولوچيا التى تضمن تفوقه علميًا فضلاً عن مده بالخبراء فى كل المجالات ، والغذاء ، والمواد الاستهلاكية ، والوقوف الدائم بجانبها فى المحافل الدولية مثل الأمم المتحدة .

وبدأت الصهيونية السياسية بمناورة الغرب ، بالوسيلة التى يفهمها الغربيون فقد تقدمت إلى حكام الغرب على أساس أنها ستقدم لهم خدمة مزدوجة . وكان هرتزل أكثر الصهاينة السياسيين فاعلية ، فكان يخاطب كل حكومة من الحكومات الغربية باللغة التى يفهمونها فى مشروع التفريغ والإحلال .

ورأى (هرتزل) الذى لم يكن يعرف عن اليهودية (دينا) إلا أقل القليل ـ الحل فى الصهيونية السياسية التى تريح أوربا من اليهود ، وتمنح اليهود فى الوقت نفسه هوية جماعية جديدة ، والصهيونية السياسية بهذا المفهوم ، تختلف تمامًا عن الديانة اليهودية والتطلعات المشيحانية ، وبتعبير أدق ، فإن الصهيونية السياسية مساوية للمسألة اليهودية » (١) . أى إنها مشكلة نابعة من داخل المجتمع الغربى ، ويجب أن يكون لها حل يتواءم مع المفاهيم الغربية فى حل المشكلات ، بعيدًا عن الأوهام الدينية الطوباوية ، فى إطار السياسة الاستعمارية ، أى إن اليهود فى عقل كل من (هرتزل) ممثل الصهيونية السياسية ، والحكومات الغربية مادة يمكن توظيفها ضمن المشروعات الاستعمارية الغربية لأراضى غير غربية ، لمصلحة تعود على كل من الصهاينة والغربيين .

إذن فالحركة الصهيونية حركة سياسية بحتة لا تستخدم الدين اليهودى ، ولم تأت من داخل أى تيار دينى يهودى ، ولم تبد رأيًا فى الديانة اليهودية ، أو فى عقائدها أو تشريعاتها، باستثناء عقيدة المشيح المخلص من نسل داود، ولكن بطريقة ذرائعية بحتة لتنتفع بها فى تحريك العامة من اليهود ، فى تقوية أهدافها السياسية

---

(١) د. المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٦٤١٦ .

«وأن العنصر الدينى فيها غير أصيل، استخدمه الصهاينة لخدمة الحركة الصهيونية فى تسهيل مهمتها والتعاطف معها ، ومساعدتها على تنفيذ مخططاتها » (١) .

ولقد أعلن عن الصهيونية رسميًا فى المؤتمر الصهيونى الأول بمدينة بال بسويسرا فى ١٨٩٧م حيث أعلن عن قيام المنظمة العالمية ، كما صدر فى المؤتمر نفسه البرنامج الذى عرف ببرنامج بال إذ أعلنت المنظمة الصهيونية عن مؤسساتها الرئيسية : المالية ، والإدارية، والإعلامية، التى تستهدف اغتصاب أرض فلسطين، وطرد شعبها عنها بالقوة ، وتوطين اليهود مكانه ، وإقامة دولة يهودية قومية يعترف بها العالم .

وكانت الأوضاع الدولية التى قامت الحركة الصهيونية فى أثنائها ملائمة لتحرك الصهيونية .

وبدأت خطة الصهيونية بالعمل المنهجى على تسريب بعض اليهود إلى أرض فلسطين ليكونوا خميرة بشرية للدولة الصهيونية ، ثم دأبوا فى العمل ليجعلوا عملية التسريب هذه عملاً معترفًا به من قبل الدول الاستعمارية المستفيدة من إقامة المشروع الصهيونى ، فإذا نجحوا فى ذلك حملوا هذه الدول على الاعتراف بالمنظمة الصهيونية وأهدافها باستيطان فلسطين ، وبقدرتها على إقامة دولة يهودية بفلسطين يقول وايزمان : « طبعًا يلزمنا أن تبقى قضيتنا ماثلة أمام مجالس العالم ، إلا أن عرضنا لقضيتنا لن يقدر له النجاح والفعالية ، إلا إذا قامت معه أعمال الهجرة والاستيطان والتعليم » (٢) .

وقال بن جوريون : « إنهم كانوا دومًا مقتنعين بأن عملهم لن يحقق النجاح ، إلا إذا ساندته إنجازات اليهود الاستيطانية بفلسطين ، وأن جهودهم تظل عاقرة ، بدون الدعم الذى يأتيها من الصهيونية العملية » .

« وما لم نوسع رقعة استيطاننا البشرى فى الأرض ، فإن جميع مساعينا

---

(١) د. محمد خليفة حسن : الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى ، ص ٩٦، ٩٧، مركز الدراسات الشرقية ـ جامعة القاهرة ، العدد ٤ ، القاهرة د. ت .

(٢) د. فايز صايغ : الدبلوماسية الصهيونية ، ص ٦٣، ٦٤ عن كتاب وايزمان : تجربة وخطأ ، ص ١٢٢ .

السياسية مع بريطانيا مهما كانت بارعة ونشيطة لن تسفر عن شيء ، فالإنجاز المادى أقوى حجة سياسية ، وأكثرها تأثيرًا على الحكومة المنتدبة (بريطانيا) أو أية حكومة أخرى » (١) .

ذلك لأن الدبلوماسية ـ ولو كللت بالنجاح ـ تظل الاتفاقات الناجمة عنها إطارات خاوية ما لم تصب الحركة الصهيونية فيها ـ عن طريق الإنجاز الاستيطانى ـ المحتوى المادى اللازم ـ يقول بن جوريون : « إن وعد بلفور ، أو صك انتداب عصبة الأمم يظلان قصاصتا ورق ما لم نعمل نحن على استحضار اليهود إلى فلسطين ، وتهيئة الأرض للاستيطان على مجال واسع » (٢) .

ومع ذلك فلم تكن الوعود الاستعمارية مثل : (وعد بلفور) وصك الانتداب البريطانى على فلسطين ، أو وعود الرؤساء الأمريكيين من ولسون فى ثلاثينيات القرن العشرين إلى بوش الابن فى غرة القرن الواحد والعشرين ، وعودًا لا قيمة لها ، بل مفاتيح ذهبية ، تفتح الأبواب لولوج الأرض ، « فالمهاجرون اليهود الذين دخلوا فى أرض فلسطين فى زمن الانتداب البريطانى من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٤٨م أهم سلاح لتحقيق الأهداف القومية الصهيونية » (٣) .

ولهذا فإن الصهيونية السياسية التى أقامها (هرتزل) فارقة بين الإرهاصات السابقة للصهيونية مثل جمعيات : أحباء صهيون وغيرها ، فقد حولت صهيونية (هرتزل) المسألة اليهودية إلى مشكلة سياسية ترعاها الدول الاستعمارية الغربية .

ويرى الصهاينة السياسيون أن المشكلة القومية الصهيونية ، مشكلة يهود وليست مشكلة يهودية ، ويرون فى اليهودية تراثًا تاريخيًا وبناء فوقيًا دينيًا يمكن الاستغناء عنه تمامًا ، فالصهيونية السياسية إذن تغلب الطابع القومى ، على الجانب الدينى ، لكى تكون قومية مثل كل القوميات » (٤) .

---

(١) د. فايز صايغ : الدبلوماسية الصهيونية ، ص ٦٣، ٦٤ عن بن جوريون يتطلع إلى الوراء ، ص ٤٨ ، ٥٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٩ عن كتاب بن جوريون: بن جوريون يتطلع إلى الوراء، ص ٥٣ .

(٣) راجع : أسعد عبد الرحمن : المنظمة الصهيونية تنظيمها وأعمالها من ١٨٩٧ ـ ١٩٤٨م ، ص ١٦٦ ـ ١٦٨ م ت ف ـ مركز الأبحاث يوليو ١٩٦٧م .

(٤) د. المسيرى : الأيديولوچية الصهيونية ١/ ٢٠١ .

ومع أن موقف الصهيونية السياسية من الديانة اليهودية موقف رافض ، ولكنه يبقى علائق تماثل بنيوى فيما بينهما ، (فتيودور هرتزل) [1] كان يؤكد أن رؤيته الصهيونية رؤية لا دينية ، وكان خليفته ماكس نوردو ملحدًا يجاهر بإلحاده ، وكان يقول: إن التوراة رؤى طفولية إذا ما وضعت فى نسق فلسفى ، ومقززة بوصفها نظامًا أخلاقيًا ، وكان حاييم وايزمان يتلذذ بمضايقة الحاخامات بشأن الطعام المباح شرعًا » .

« وكان المستوطنون يؤكدون على الطبيعة اللا دينية لمشروعهم الصهيونى ، وهذا ما دفعهم إلى أن يتخلوا عن لقب « يهود » ويتبنوا لقب « عبرانيين » أى أنهم عرّفوا بأنفسهم على أساس قومى ، لا أساس دينى ، وحتى عندما يضطرون لاستخدام لفظ « يهودى » فهم يستخدمونه بعد تفريغه من محتواه الدينى » [2] .

ولقد ارتبطت الصهيونية السياسية بحركات أوربية ثلاث هى :

١ ـ القومية الأوربية .

٢ ـ النزعة الإمبريالية .

٣ ـ تهجير الأوربيين للفائض من السكان فى بلادهم إلى مستعمرات ـ خاصة المستعمرات البريطانية فى آسيا وإفريقيا ـ واستراليا ، والولايات المتحدة .

ومن المعلوم أن النزعات القومية الأوربية برزت فى أوربا مع الثورة الفرنسية ، ولكنها بلغت الذروة مع بداية القرن ١٩ وكان من أهم نتاجها القوميتان : الإيطالية والألمانية ، فقد توفرت لهما مقومات مهمة مثل :

---

(١) لم يكن هرتزل يهوديًا بالمعنى الدينى لليهودى ، بل كان ملحدًا ، ومات على إلحاده ، أما ابنه وابنتاه فلم يكن أحد منهم يهتم باليهودية ، أو يعبأ بالصهيونية ، ولم يفكر أحد منهم بالهجرة إلى فلسطين. فابنته (بولين) توفيت فى بوردو سنة ١٩٣٠م ، وابنه (هانز) لم يرث حماس أبيه إلى الصهيونية، بل ورث عقدة الانتماء إلى اليهودية فتنصر، وانتحر بعد وفاة أخته بفترة وجيزة، وابنته الثانية (ثرود) لقيت حتفها فى مخيم اعتقال نازى خلال الحرب العالمية الثانية، ثم مات ابنها الوحيد (ستيفن) بعد أن هاجر إلى الولايات المتحدة ـ بطريقة غامضة إذ سقط من فوق بناية عالية فى واشنطن فى سنة ١٩٤٥م وبهذا لم يبق أحد من ذرية هرتزل ليفخر بالمشروع الصهيونى. راجع أ. ب. سعد : عقدة هرتزل ، ص ٧٧ م شؤون فلسطينية العدد ١٥ نوفمبر ١٩٧٢م .

(٢) راجع د. المسيرى : الأيديولوجية الصهيونية ١/ ٢١٥ ، ٢١٦ .

١ ـ شعب له خصوصيات تميزه عن غيره من الشعوب ، وكذا صفات يتفرد بها تميزه عن الجماعات الأخرى .

٢ ـ الأرض التى يمكن أن يستقر عليها هذا الشعب نفسه .

٣ ـ الهيئة التى تخرج من الجماعة ذات الصفات المشتركة المتميزة لكى تمارس سلطات الحكم فيها .

٤ ـ رابطة روحية تجمع أفراد هذه الجماعة ، على أن تدعمها رابطة سياسية توثق شعور الوحدة بين أفراد هذه الجماعة ، بتكوين أهداف مشتركة تسعى الجماعة لتحقيقها .

٥ ـ وحدة الدين واللغة .

ولقد رأى مؤسسو الصهيونية السياسية الأوائل أن هذه المقومات موجودة ، باستثناء الأرض ، هذا من حيث الواقع ، أما من ناحية الفكر التنظيرى ، فقد زعموا أن أرض فلسطين موجودة ، وهى أرضهم تنتظر عودتهم منذ ألفى سنة ، وهى لا تزال خاوية بدون سكان ـ هكذا زعموا ـ حتى الآن ، منذ أن تركوها وتفرقوا فى الشتات فى ظروف قهرية ليست من صنعهم ، ولكن من صنع الأغيار.

ومع أن اليهود لا ينتمون إلى عرق واحد ، إلا أن فكرة العبرانية وقيمها الروحية والثقافية التى حملوها بمختلف أعراقهم وأجناسهم إلى كل مكان حلوا فيه من العالم جعلت لهم قومية يهودية ، ولم يعد باقيًا إلا الربط بين هذه القومية ، وأرض فلسطين .

ولم يكن هناك أدنى مشكلة فى هذا الربط ، فقد كانت القوة الإمبريالية البريطانية أسبق من اليهود أنفسهم فى إيجاد حل لهذه المسألة يقول المسيرى فى ذلك : « تمت بلورة المفاهيم الصهيونية السياسية ، وملامح المشروع الصهيونى كمشروع استعمارى بشكل كامل ، فى الفترة من منتصف القرن ١٩ وفى سنة ١٨٨٠م على يد الاستعمارى الإنجليزى الأشهر لورد شافتسبرى ، ولورانس أوليفانت ، ولقد لخص شافتسبرى التعريف الغربى لمفهوم الصهيونية السياسية فى

عبارة : « أرض دون شعب لشعب بدون أرض » ، ثم حاول أن يضع المشروع الصهيونى موضع التنفيذ » [1] .

وإذا كان لورد شافتسبرى الاستعمارى البريطانى يمثل أحد أطراف العقد بين الاستعمار والصهيونية ، فإن هناك شخصيات صهيونية كان لها دور مؤثر ، وتمثل الطرف الثانى فى هذا العقد منهم :

أولاً : (موسى هس Moses Hess ١٨١٢ ـ ١٨٧٥م) :

ويعدونه رائد القومية الصهيونية، فهو يهودى صهيونى علمانى نادى بالقومية الصهيونية وشيجة اجتماعية وسياسية ، تجمع اليهود على معنى مشترك ، تحت لواء واحد » [2] .

نشأ هس نشأة دينية فى مدينة (بون) بألمانيا حيث حصل على قسط وافر من الثقافة التلمودية ، ودرس العبرية على جده الذى كان يأمل أن يصبح حاخامًا بألمانيا ، ولكنه انشغل بدراسة الفلسفة والتاريخ واللغتين الفرنسية والإنجليزية ، كما درس العهد الجديد .

وفى سنة ١٨٣٥م التحق بجامعة (بون) وكانت آنذاك تموج بتيارات فكرية ثورية ، وكان من بين طلابها كارل ماركس الذى صادقه لفترة ما .

وشارك سنة ١٨٤٠م فى النشاط السياسى بألمانيا فانضم إلى الحركة الاشتراكية الأوربية ، وتعاون مع كارل ماركس وإنجلز فى تنظيم الحركة العمالية ، ثم اختلف معهما بعد صدور البيان الشيوعى (المانيفستو) إذ عارض (هس) نظريتهما فى حتمية الصراع الطبقى ، ورأى خلافًا لهما أن العالم مكون من عناصر وأعراق لا من طبقات ، وأن الصراع إذا كان حتميًا فسيكون بين الأعراق لا بين الطبقات ، وفى هذه الحالة ، فإن العنصر الأقوى هو الذى سيحقق النصر ، وهذا أمر عادىّ من (هسّ) الذى كان يرى أن العنصر العبرانى من العناصر المتفوقة ، وأنه جدير بأن يكون ممثلاً لإحدى القوميات ، وبأن تقع عليه مسؤولية تكوين أمة .

---

(١) المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٦/ ١٣ .

(٢) عبد السميع سالم الهراوى : الصهيونية بين الدين والسياسة ، ص ٣٠٢ ، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧م.

كانت هذه الأفكار المتضادة هى العامل الأساس الذى أدى إلى انفصال (هس) عن صديقه (ماركس) .

وفر (هس) من ألمانيا فى سنة ١٨٤٨م بعد أن حكم عليه بالإعدام لاشتراكه فى الثورة الاشتراكية ـ إلى فرنسا التى جعلها محل إقامته إلى أن مات فى سنة ١٨٧٥م .

وفى سنة ١٨٦٢م أصدر (هس) كتاب « بعث إسرائيل » The Reveival of Jsrael وهو الكتاب الذى عرف فيما بعد باسم روما والقدس : Rome and Jerusalem وقد تضمن هذا الكتاب رسائل رمزية إلى سيدة مجهولة ، ترمز إلى الشعب اليهودى ، فقدت حبيبها ، ويئست من أن تجده = الأرض الموعودة ، فكأن هذه الرسائل كانت دعوة إلى بعث الأمل فى قلب هذه السيدة ، وأن الوقت قد اقترب لكى تلتقى بالحبيب التائه .

لقد أراد (هس) أن يضع بهذه الرسائل حداً لحالة انفصال اليهودى عن حبيبته = أرض فلسطين ، وضمن هذه الرسائل التى جاءت فى تصور عاطفى بين امرأة وحبيبها : أسس العقيدة الصهيونية فى العودة ، فكتاب روما والقدس ، كان دعوة إلى بعث القومية اليهودية فى القدس بعد تحريرها (بحسب رؤيته) ورأى فيه كذلك أن الدين اليهودى ، هو العنصر الأساس فى هذا البعث القومى .

ومع أن كتاب (روما والقدس) كما وصفه (حاييم وايزمان) لم يقدم تحليلاً جذريًا للمشكلة اليهودية حتى سنة ١٨٩٥م إلا أنه مفعم برثاء تاريخى لليهود لم يرق (تيودور هرتزل) إلى مستواه [١] فى كتاب (الدولة اليهودية) .

استهل (هس) كتابه بقوله : « كانت غربة طويلة . . . عدت بعدها إلى شعبى وأهلى لأشارك من جديد فى أفراحهم وأحزانهم ، وآمالهم وذكرياتهم ، تلك المشاعر التى خلت أننى قد نجحت فى كبتها عبر السنين الطويلة بعثت إلى

---

(١) مقدمة وايزمان لكتاب الدولة اليهودية لهرتزل،ص ٢٥، ٢٦، دار الزهراء ـ القاهرة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ود. المسيرى : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، ص ٤١٨، ٤١٩ ، مركز الدراسات السياسية بالأهرام ١٩٧٥م ، وأمين عبد الله : مشاريع الاستيطان ، ص ٧٧، ٧٨ .

الحياة من جديد ، إنها المشاعر المستمدة من قوميتها التى ترتبط بتراث أجدادى ، والأرض المقدسة الخالدة ، وبالقدس » [1] ، ووضع (هس) خطته فيما يلى :

أولاً : بعث القومية اليهودية ، وقد دل عليها النص السابق :

ثانيًا : اللاسامية ، واللا مكان على النحو التالى :

١ ـ اللاسامية :

أثار (هس) حدة معاناة اليهود من نزعة اللاسامية فى أوربا، خاصة فى ألمانيا، إحدى أكبر التجمعات اليهودية فى العالم ، وأن هذه الكراهية ليست بسبب الدين اليهودى ، بل كراهية اليهود كعنصر وعرق ، ولهذا فقد كان (هس) ينكر الدعوة إلى الاندماج، لأنها لا تمثل حلاً للمشكلة اليهودية، بل رآها محاولة عقيمة، لا تنقذ اليهود من المعاناة : « إن كراهية العرق اليهودى هى الأساس ، وليس باستطاعة أى إصلاح ، أو تَنَصُّر ، أو أية ثقافة ، أو تحرر أن تفتح أبواب المجتمع الألمانى لليهود ، حتى لو تنكروا لعرقهم » [2] .

٢ ـ اللا مكان = اللا مأوى :

وما دام اليهود يعيشون فى غير أوطانهم فسيظلون دائمًا غرباء، غير محترمين، وفى ذلك قال (هس) من الممكن أن تتحرك المشاعر الإنسانية لدى بعض الشعوب الأوربية فتحررنا ، ولكنها لن تحترمنا طالما ظل مبدؤنا أن موطن المرء حيث ينتفع ، إن لب المشكلة = اللا مأوى ، أى عدم وجود وطن لليهود مثل باقى الشعوب الأخرى ، سيدفع بهم فى النهاية إلى مستوى الطفيليات التى تعتمد فى الوصول إلى قُوتِها على الآخرين [3] .

وبهذه الأفكار القومية الصهيونية التقى (هس) مع الحاخامات دعاة الصهيونية الدينية من أمثال (يهودا القلعى) و(هيرش كليشر) وغيرهما . ومع أن هناك

---

(١) أمين عبد الله : مشاريع الاستيطان ، ص ٧٨ .

(٢) أمين عبد الله : المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٣) أمين عبد الله محمود : مشاريع الاستيطان ، ص ٧٩ نقلاً عن (هس) : روما والقدس ، ص ٥٢، ٥٣ .

بعض الخلافات فى الرأى فيما بينهم ، إلا أن هناك أصلاً مشتركًا جمع بينهم ، وهو الأصل الداعى إلى ضرورة بعث صحوة يهودية قومية ، بتحقيق توافق بين الدين والقومية ، من أجل إرساء أسس تعاون على تحقيق الأهداف المشتركة بين جموع اليهود » (١) .

بهذه الأفكار مهد (هس) الطريق التى سار عليها الصهاينة التصحيحيون أمثال: (هرتزل ، وماكس نوردو ، وجابوتنسكى ، وبن جوريون ، ومناحم بيجن حتى شارون) فقد قبلوا جميعًا أطروحات الصهيونية الأساسية من الشعب العضوى المنبوذ ، الذى يشكل جسمًا غريبًا فى كل بلاد الأرض ، والآن تلفظه أوربا وتكرهه ، ومن ثم فقد نتج عن ذلك مشكلة ترتب عليها مسألة مهمة فى تاريخ الصهيونية ، وهى التفريغ والتهجير والاستيطان المصاحب للاستعمار .

كانت فكرة تفريغ الفائض الأوربى من البشر ، تسير جنبًا إلى جنب مع فكرة الاستعمار ، وكانت البرجوازية الأوربية تفكر فى استعمار غيرها من الدول الضعيفة بتوطين سكان أوربيين فقراء يخدمون الاستعمار فى هذه البلاد ، فتجنى ثمرة ذلك مرتين .

الأولى : التخلص من الفائض من الفقراء الذين يكونون عادة مادة الاضطراب الاجتماعى ، والقلاقل التى تهدد الرأسمالية الأوربية .

الثانية : استثمار هؤلاء الفقراء أنفسهم فى العمل فى المستعمرات ، فتكسب بهم الرأسمالية مرتين ، وقد قام تهجير فائض أوربا من أراذلها ابتداء من القرن ١٦ إلى الأمريكتين ثم استراليا ، ودول أفريقيا وآسيا بناء على قاعدة تفريغ الفائض ، فلما لا تستثمر الصهيونية الفكرة فى استيطان أرض فلسطين ، خاصة وأن الأوربيين يرون اليهود جنسًا شاذًا ومقلقًا ، وأنه يجب تفريغ أوربا منهم ، وتوظيفهم فى خدمة الاستعمار الغربى بالمنطقة العربية .

كانت عملية التفريغ والملء تهيئ للدولة الاستعمارية ـ إنجلترا ـ بصفة خاصة

---

(١) راجع : الصهيونية الدينية ـ تحرير ـ الفصل الثالث مبحث شموئيل الموج : موقف العلمانية من الدين ، والمتدينين فى بداية الحركة الصهيونية من ص ٥٩، ٧٥ .

التخلص من الفائض البشرى لديها ، مما يخفف من وطأة الضغوط الاجتماعية فى الداخل ، ومما يؤكد أن هذه العملية كانت تسير بطريقة منهجية ما كتبه الزعيم السوفيتى (فلاديمير لينين) نقلاً عن خطاب قطب استعمارى إنجليزى قال فيه : «كنت أمس فى حى إيست إند East End = حى العمال بلندن ، واستمعت هناك لخطب هائجة ، لم تكن سوى صرخات من أجل الخبز ، وفى أثناء عودتى إلى المنزل تأملت فى هذا المشهد ، فأصبحت أكثر قناعة من أى وقت مضى بفكرتى من الإمبريالية، فى قول القطب الاستعمار الإنجليزى : « إن فكرتى المحببة لحل المسألة الاجتماعية بمبادرة أخرى ، من أجل إنقاذ أربعين مليونًا من سكان إنجلترا ، من حرب أهلية دموية ، ينبغى علينا نحن رجال الدولة المسؤولين عن المستعمرات الاستيلاء على أرض جديدة لتوطين فائض السكان فيها ، لنوفر أسواقًا جديدة للبضائع التى تنتجها المصانع البريطانية ، وكما أقول دومًا فإنها مسألة تتعلق بخبز الناس وغذائهم ، فإذا كنتم تريدون تجنب حرب أهلية ، فعليكم أن تصبحوا إمبرياليين » (١) .

وهكذا يفعل الإمبرياليون لكى يوفروا الرفاهية لمجتمعاتهم على حساب شعوب أخرى ضعيفة ، ولا يهمهم بعد ذلك ؛ إذ كانت الرفاهية التى تتحقق لشعوبهم تسبب التعاسة للآخرين أولاً ؟! وإذا كانت الدول الإمبريالية تفعل ذلك مع مواطنيهم ، فمن باب أولى أن تفعله مع الجاليات اليهودية ببلادهم التى تمثل خطورة عليهم ، وعلى اقتصادهم لمهارتهم فى التلاعب فى الأسواق التجارية ، وفى الأعمال الربوية .

وهذه الفكرة الإمبريالية راقت للصهيونية ، بمثل ما راقت للإمبريالية ، فهم بدون وطن يملكون ترابه، وسيملكهم الأوربيون وطنًا ، وعندئذ سيملكون قرارهم بأنفسهم فى مقابل خدمات مهمة يقدمونها للمستعمر ولى نعمتهم .

ولماذا لا يفكر اليهود من أمثال (موسى هس) بطريقة الاستعمار الغربى ، ولماذا لا يفعل ما فعله الاستعماريون البريطانيون بجنوب إفريقيا ، خاصة وأن

---

(١) فلاديمير لينين : الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ، موسكو ١٩٧٦م .

الفرصة مواتية ، ذلك إذا كان الأوربيون يتخلصون من فائضهم البشرى من المسيحيين بإرسالهم إلى مستعمرات أقاموها فى قارات جديدة فى أميركا واستراليا ، وجنوب إفريقيا ، فمن باب أولى فإنهم يتخلصون من الفائض البشرى اليهودى ، على أن يكون صوب فلسطين درة الشرق العربى ، فى الوقت الذى تكون فيه البرجوازية اليهودية التى ستبقى فى الغرب مستعدة لتمويل التفريغ والنقل والملء مرة ثانية فى المستوطنات الجديدة .

كانت هناك عوامل كثيرة متضافرة لترحيل فقراء اليهود عن أوربا إلى أرض فلسطين يأتى فى مقدمتها طبيعة فقراء اليهود وحالاتهم المثيرة للقلق والاضطرابات، فهم أعتى من فقراء المسيحيين الأوربيين ؛ لأن قلوبهم مليئة بحقد متراكم منذ آلاف السنين ، وعقولهم مشحونة بالتمرد والفكر الثورى ، خاصة يهود روسيا وبولندا .

بالإضافة إلى ما سبق فقد سرى بين الناس فى القارة الأوربية مفهوم : إن التخلص من فقراء اليهود يفيد كل من الرأسمالية الغربية واليهود ، كما أن إنشاء كيان يهودى على أرض فلسطين تحت حماية دولة استعمارية ، أو دول استعمارية سيقلل من القلاقل التى يسببها ثوريو اليهود فى أوربا ، وفى الوقت نفسه يتحرر اليهود من معاداة اليهود = اللاسامية ، واللا مأوى .

كل العوامل تشهد على أن الأمم المسيحية لن تعارض مطلقًا فى إنشاء وطن لليهود على أرض فلسطين ، طالما أن ذلك يضمن التخلص منهم ، وعلى هذا الأساس وضع (هس) مشروعه الاستيطانى لأرض فلسطين فى الخطوات التالية :

١ ـ إن الأوربيين القوميين يقولون بنقاء العرق الأوربى ، فلما لا يقول اليهود بنقاء العرق اليهودى .

وكانت (الدارونية) فى عنفوانها فقد برزت إلى الوجود فى سنة ١٨٥٨م قبل أن يصدر (هس) كتابه فى سنة ١٨٦٢م ، وليس اليهود بزعم (هس) أقل من الأوربيين القوميين فى ادعاء نقاء العرق ، ولقد رأى (هس) أن الرابطة القومية لا الطبقية هى التى يجب أن تسود بين اليهود ، إنها الأرض المشتركة للشعب اليهودى من فقراء اليهود وأغنيائهم ، وأن تعميق مفهوم الأرض القومية يمثل القاعدة التى يرتكز عليها البناء اليهودى فى دولتهم بفلسطين .

٢ ـ لأن يهود أوربا الشرقية ـ وهم أغلبية يهود أوربا آنذاك ـ كانوا أكثر فئات اليهود فقرًا فقد حثهم قبل غيرهم على التوجه إلى فلسطين مناديًا فيهم: «لم لا يحق للشعب اليهودى التجمع لتحرير وطنه، مثلما فعل الشعب الإيطالى الذى كان مفرقًا فتحرر على أيدى (مازينى) و(غاريبا لدى) و(كافور) الذين وحدوا دولتهم .

٣ ـ استغل (هس) مزاعم الإمبريالية التى تحتل أراض ليست ملكًا لها وتزعم أنها تفعل ذلك من أجل تحديثها ، ونشر الحضارة الغربية ومدنيتها ، وعلى المثال نفسه فلم لا يستوطن اليهود فلسطين ، ويجعلوا منها مركزًا لتمدين شعوب آسيا وإفريقيا المحيطة به ، فمن القدس يكون مركز الإشعاع الحضارى للمنطقة ، وهذا لن يتم ـ بحسب زعمه ـ إلا عن طريق إقامة الدولة الصهيونية .

٤ ـ إذا كان لابد من دولة استعمارية كبرى لحماية هذا المشروع ودعمه ، فلتكن فرنسا؛ لأنها فى ذلك الوقت سنة ١٨٦٢م هى الدولة صاحبة النفوذ الأقوى فى المشرق العربى ، فهى التى شقت قناة السويس فى سنة ١٨٤٥م ، ولها نفوذ من خلال المارون فى سوريا [قبل انفصال لبنان عنها] كما أن فرنسا لا زالت تسعى لتحقيق رسالة الثورة الفرنسية . .

ثانيًا : ليوبنسكر : ١٨٢١ ـ ١٨٩١م :

كان (ليوبنسكر) أحد الشخصيات الصهيونية المؤثرة مثل (هس) وضع خطة لتوطين اليهود بفلسطين فى كتاب: (التحرر الذاتى) الذى صدر فى سنة ١٨٨٢م، وكان (بنسكر) يهوديًا روسيًا اندماجيًا حتى صدور كتابه فى سنة ١٨٨٢م الذى كان مؤذنًا بتحوله إلى صهيونى سياسى .

كان لكتابه (التحرر الذاتى) أثر كبير فى تحولات الصهيونية السياسية والقومية على السواء فقد نشر فيه دعوته إلى ضرورة قيام وطن قومى لليهود ، صرح فيه بأن قيام هذا الوطن ضرورة لتجميع يهود الشتات ، على زعم أن معاداة السامية فرض أزلى على اليهود ـ وعلى زعم أن اليهود يعيشون غرباء فى البلاد التى يحلون بها ، وأن هذه المجتمعات تنبذهم ولا تقبلهم فيها ، وهم على هذا الأساس لا يقدرون على الاندماج فيها ، ومن هنا فإن النظر إلى إصلاح حياة اليهود والبلاد

التى ينتشرون فيها من الأمور المستحيلة ، ومن ثم فلابد من البحث عن حل للمشكلة اليهودية خارج كيانات هذه الشعوب ـ بالبحث عن وطن خاص باليهود ، وعند ذلك فقط سيحصل اليهود على كرامتهم المفقودة .

و(بنسكر) ردد فى كتابه ـ ما سبق أن قاله (هس) وما سيقوله (هرتزل) فى كتاب الدولة اليهودية بعد ذلك ، مع خلاف بين ثلاثتهم فى التفاصيل أو فى بعضها . إذن فقد كان (ليوبنسكر) يرى أن حل مشاكل اليهود ومأساتهم فى إقامة دولة صهيونية ، تضم أشتاتهم ، على أن تقوم الدول الأوربية العظمى التى تضطهدهم بمساعدتهم فى إقامة دولتهم القومية ، ووجه ـ على هذا الأساس نداء لكل يهود العالم بإقامة رابطة قومية ؛ لأن من حقهم أن تكون لهم رابطة قومية مثل كل شعوب العالم ، وكل القوميات فى العالم .

وكان لكتاب (بنسكر) دوى وصدى لم ينقطع فى مسيرة الحركة الصهيونية ، لدرجة أن (وايزمان) قال فى مقدمته لكتاب (هرتزل) (الدولة اليهودية) : إن (ليوبنسكر) فى كتاب (التحرر الذاتى) استطاع أن يتعمق فى واقع الحياة الاجتماعية والنفسية لليهود المشردين أكثر مما فعل (هرتزل) فى كتاباته الصهيونية الأولى» .

كان تحول (ليوبنسكر) من يهودى اندماجى ، إلى يهودى صهيونى ناتجًا عن المعاناة التى عاشها يهود روسيا بعد سنة ١٨٦١م ، وهى السنة التى ألغيت فيها القنانة فى روسيا القيصرية ، وهو النظام الذى أفاد اليهود فى روسيا حيث كانوا يقومون بدور الوساطة التجارية بين الإقطاعيين والفلاحين ، فكانوا يسرقون كل من الطرفين ، ولكن بعد القضاء على القنانة = الرق . خرجت من طبقة الفقراء الروس طبقة برجوازية ، أخذت تنظر إلى كل من الإقطاعيين ، واليهود على أنهم جميعًا أعداؤهم ، الذين كانوا يضطهدونهم ؛ لأنهم قدروا عليهم .

ثم جاءت مذابح اليهود فى روسيا فيما سمى بـ البوجروم Pogrom فكان تحول (ليوبنسكر) من الاندماج إلى الصهيونية من أجل حماية الكيان اليهودى فى روسيا، لكن هناك حدث مهم أثر فى طبيعة التحول الفكرى السياسى لدى بنسكر، وهو أنه قام بجولة فى أنحاء أوربا الغربية ، وأمضى فترة ليست بالقصيرة فى لندن التقى فيها بالساسة الاستعماريين البريطانيين، وكبار أثرياء اليهود ، وكانت الشكوى

التى اتفق عليها الجميع هى : الخطر الكامن فى هجرات اليهود الآتين من أوربا الشرقية، خاصة من بولندا وروسيا، الذى يمكن أن يضر بقضايا اليهود، لأن اليهود بطبعهم إما أن يحصلوا على الثروة ، وإما أن يثيروا القلاقل ، وكلا الأمرين غير مرغوب فيه فى أوربا الغربية ، ومن ثم فإن الأوفق أن يهاجر اليهود الفقراء المهاجرون من شرق أوربا قاصدين غربها إلى وجهة أخرى ولتكن أرض فلسطين.

وقامت خطة (ليو بنسكر) فى كتاب التحرر الذاتى على الذرائع الآتية :

١ ـ إن حل المشكلة اليهودية ، لن يتم إلا إذا تحققت المساواة الكاملة لليهود مع مواطنى الشعوب الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، ولما كان تحقق ذلك مستحيلاً لأنهم لا يملكون وطنًا أبويًا Vater Land رغم كثرة أوطانهم الأمومية Mutter Lander ، كما أنه لا توجد لهم حكومة وطنية تمثلهم ، ومن ثم لزم البحث لهم عن حل ، بإيجاد رابطة قومية تجمعهم ، وكذلك وطن قومى يجمعهم ، والمقصود بالوطن القومى فى فكر بنسكر أرض تعيد لليهود كرامتهم المفقودة ، ولا يستوجب أن تكون هذه الأرض ، أرض (يهوذا) القديمة ، ولكن أرض يمتلكها اليهود ويعيشون فيها ، وإن كان (ليوبنسكر) لا يرفض الأرض المقدسة بفلسطين إذا تيسر ذلك .

٢ ـ تحفيز جماهير اليهود على الإيمان بأهمية الوجود القومى المستقل ، وإيجاد هذا الحافز واجب على الصهيونية السياسية ، وعليها إثارته لدفع اليهود إلى ممارسة حقوقهم القومية السياسية .

وكان (ليوبنسكر) يرى أن التحرر السياسى فى البلاد التى يعيشون فيها غير كاف لرفع مكانتهم بين الشعوب ، وكذلك الاستنارة ، إنهما لن يكونا علاجًا لما آل إليه الشعب اليهودى من مهانة بين الأمم ، بل على النقيض فقد زاد من مشاكل اليهود ، لأنه رأى أن اليهود وقت ما كانوا فى معازل (الغيتوات) فقد كانوا يحسون بمشاعر القومية ، هذه المشاعر القديمة التى لم تحقق القومية عمليًا إلا أنها أفضل من التحرر الذى وضعهم فى حالة اندماج مع الشعوب الأوربية فأفقدهم التحرر الذاتى .

٣ ـ إن الوقت الحالى (سنة ١٨٦٢م) هو أنسب الأوقات لتحقيق التضامن

القومى لليهود ـ ومن ثم فهو يهيب بزعماء اليهود فى أوربا أن يكوّنوا مجلسًا من أغنيائهم ، وصفوة نبهائهم وسياسييهم ليقوم بالبحث القومى ، على أن يكون جميع اليهود مستعدين للتضحية من أجل تحقيق هذا الهدف القومى ، وعند ذلك فإن التمويل لهذا المشروع لن يمثل مشكلة تقف دون تحقيق هذا الهدف .

٤ ـ اللاسامية : أى إثارة حركة معاداة اليهود بصفة مستمرة لإقلاق الأغيار وجعلهم يشعرون بعقدة الذنب الدائم حيال ما لحق باليهود من ظلم على مدى آلاف السنين ، ولقد وجد (بنسكر) فى اللاسامية مثل كل الصهاينة مادة مفيدة لتحريك القوى داخل الذات اليهودية وخارجها ، أى فى مشاعر اليهود والأغيار على السواء، ولهذا فإن الصهاينة لا يعملون على مقاومتها ، بل يعملون على إشعال نارها كلما خبت ، ويجعلون منها قوة دافعة لحركتهم باستمرار ، بل قوة مؤثرة فى جماهير اليهود فى تغيير مسيرة تحركهم من الاتجاه نحو الاندماج مع الأغيار ، إلى التوجه إلى الكيان الصهيونى أى الدولة القومية اليهودية .

ولقد عبر (بنسكر) عن أن اللاسامية (العداء لليهود) مرض موروث منذ أكثر من ألفى سنة ، وهو مرض غير قابل للشفاء ما دام هناك يهود يحاولون الاندماج فى أوطان الأغيار ، خاصة الذين يغالون فى كراهية اليهود .

٥ ـ حاول (بنسكر) أن يستغل مشكلة الانفجار السكانى بالقارة الأوربية لمصلحة الصهيونية ، على أساس أنها جزء من المشكلة السكانية فى البلاد التى يعيش فيها اليهود ومن ثم يكون هدف توطين اليهود فى بلد يستقرون فيه خارج أوربا ، هدفًا مشتركًا ، لكل من الأوربيين الذين يرغبون فى التخلص من اليهود ، ولليهود الراغبين فى الاستيطان فى وطن قومى لا يخرجهم أحد منه ، قال بنسكر فى ذلك : « على أعظم قوانا وأحسنها أن تتحد باتفاق شامل للسعى نحو الهدف المشترك الذى يرمى بصورة أساسية إلى إيجاد وطن أمين دائم لا يمكن التنازل عنه لاستيعاب الفائض السكانى من اليهود الذين يعيشون فقراء (طبقة العمال والشغيلة) فى الدول المختلفة ، ويكونون عبئًا على المواطنين الأصليين » (١) .

---

(١) نقلاً عن خالد القشطينى : إلى أين إسرائيل ، مركز الأبحاث الفلسطينية سنة ١٩٧٠م .

٦ ـ تكوين قوة يهودية مادية فاعلة بالتنسيق مع القوى الأوربية العظمى خاصة إنجلترا ، ومن أجل تحقيق هذه الغاية دعا (ليو بنسكر) إلى إقامة التنظيمات السياسية والإدارية والمالية اللازمة لإقامة الوطن القومى لليهود ، كما رأى أن الجمعيات اليهودية الروسية ، يمكن أن تكون نواة مجلس قومى يهودى تنبثق منه هيئة إدارية عليا ، وإنشاء شركة مساهمة يهودية للإشراف على تهجير اليهود من روسيا إلى الوطن القومى ، تمولها الشخصيات اليهودية الثرية فى أوربا .

٧ ـ التركيز على الفائدة التى ستعود على الدول الاستعمارية ، لأن المهاجرين الأوائل المستوطنين اليهود سيقومون بدون العمالة السياسية والاقتصادية للاستعمار فى المناطق المحيطة بدولتهم فى حال إنشائها .

٨ ـ عين (ليو بنسكر) بعد إصدار كتابه بسنتين أى فى سنة ١٨٦٤م فلسطين لتكون وطنًا قوميًا لليهود ، وهكذا وضع (بنسكر) أسس الفكر الصهيونى السياسى ومبادئه فهو لم يقدم أفكارًا نظرية عن متطلبات الصهيونية فحسب ، ولكن كان أول من وضع خطة عملية واضحة لإنشاء الوطن القومى ، وكان أول من عرض المشكلة اليهودية للرأى العام الأوربى على اعتبار أنها مشكلة يجب أن تحظى باهتمام السياسات الدولية لدى الحكومات الأوربية ، على افتراض أن المشكلة اليهودية تحمل من المخاطر للمجتمعات التى يعيش فيها اليهود ، أكثر مما تحمله لليهود أنفسهم ، وأن فى مساعدة الدول العظمى فى حل مشكلتهم بإقامة وطن قومى لهم حل لكل من الدول العظمى ، واليهود معًا ، وهى الأفكار نفسها التى تبناها (هرتزل) وسار على هداها ، وتابعها حذو النعل بالنعل .

وكان من تقدير اليهود (لبنسكر) أن انتخبوه رئيسًا لجمعية أحباء صهيون ، وكان لا يخفى عليه ، ولا على أقطاب الحركة الصهيونية أطماع بريطانيا منذ ١٨٤٠م فى الشرق العربى ، واستعدادها لتقديم المساعدة لليهود بإقامة وطن قومى بفلسطين يدعم نفوذها الاستعمارى فى المنطقة العربية ، حين تحين الفرصة لذلك، بموت الدولة العثمانية ، وحانت تلك الفرصة لبريطانيا بعد سنة ١٨٨٢م فى أعقاب احتلال مصر ، وعندما أصبحت حاجة الإمبراطورية البريطانية ملحة إلى إقامة كيان سياسى عميل موال لها كممثلة للإمبريالية الغربية بفلسطين .

وكان بجانب (هس) و(بنسكر) شخصيات أخرى كانت لها أدوار مؤثرة فى مسيرة الصهيونية السياسية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

أولاً : (بيرتز سمو لنسكن : ١٨٤٢ ـ ١٨٨٥م) :

وأقام حركته على الأسس التالية :

١ ـ مناهضة الحركة الإصلاحية اليهودية = (هسكلاه = مندلسون) ؛ لأن (مندلسون) كان يتمسك بالتنوير ، كما كان فى أوربا فى القرن ١٨ وما تلاه ، لأن ذلك يجعل الشخصية اليهودية تذوب فى الشخصية الأوربية ، كما أن حركة (مندلسون) تخلت عن أهم قوة محركة للوحدة القومية اليهودية المتمثلة فى اللغة العبرية والخلاص الجماعى للشعب اليهودى ، وعلل سمولنسكن تمسكه باللغة العبرية ، لكونها وعاء التوراة التى تعضد وجود الشعب اليهودى ، كما أن إحياء العبرية برأيه غرس لحب الوطن القومى فى قلب كل يهودى .

٢ ـ إبراز اللاسامية (العداء لليهود) بتوجيه الرأى العام اليهودى ـ خاصة فى روسيا إلا الاضطرابات التى حدثت فى سنة ١٨٨١م قصد بها تحديداً ذبح اليهود لإجبارهم على التوجه إلى أرض جديدة خارج روسيا ، ولهذا فقد أخذ يدعو فقراء اليهود فى روسيا إلى الهجرة إلى فلسطين بهدف استيطانها ، وإقامة كيان يهودى فيها ، واختار فقراء اليهود ومعوزيهم لكى يسبقوا أغنياء اليهود ليقوموا بأعمال منتجة تسهل الطريق إلى صهيون ـ خاصة الأعمال الزراعية ، لأنها تؤدى إلى تفاعل المستوطنين مع الأرض وتربطهم بها فيتعلقون بها ، فضلاً عن أن ذلك من شأنه أن يخفف الضغط على بقية اليهود فى الشتات الذين سيقومون بدورهم فى تمويل العملية الاستيطانية .

واقتصرت جهود سمولنسكن على الانضمام إلى حركة أحباء صهيون ، والدعوة إلى تهجير فقراء يهود روسيا إلى فلسطين .

ثانيًا : (موشى ليلينبلوم : ١٨٤٣ ـ ١٩١٠م) :

بدأت دعوته فى سنة ١٨٨١م لإقامة مستوطنات تكون دعامة لإقامة الدولة اليهودية فيما بعد .

ونشر فى سنة ١٨٨٤م كراسًا بعنوان « حول بعث اليهود على أرض آبائهم » وأقام أفكاره على الأسس التالية :

١ ـ تصوير حالة الذل والمهانة التى يعيشها يهود روسيا ، وضرورة الخلاص من حياة الغربة والمهانة لا يكون إلا بالفرار إلى وطن يستقر فيه اليهود ، فيعيشون فيه حياة طبيعية مثل كل الدول .

٢ ـ تأكيد الاعتقاد بأنه لا منقذ لليهود من حياة الذل التى يعيشونها فى بلاد الشتات ، إلا ببعث قومى بينهم بإقامة وطن قومى على أرض آبائهم .

٣ ـ أن تقتصر هجرات اليهود الأولى إلى فلسطين، على المزارعين والحرفيين، وصغار الرأسماليين، على أن يكون هؤلاء نواة الدولة القومية التى تضم كل سوريا ومنها فلسطين .

ولقد انضم ليلينبلوم إلى حركة أحباء صهيون ، ثم كان عضوًا فى لجنتها التنفيذية فعمل بنشاط فى تطوير المستوطنات التى أقامتها الحركة الصهيونية .

ثالثًا : (العيزر بن يهودا ١٨٥٨ ـ ١٩٢٥م) :

وقامت أفكاره على الأسس التالية :

١ ـ قيام قومية يهودية على غرار القومية الروسية (السلافية) على أساس سياسى علمانى .

٢ ـ أن يظل اليهود محافظين على الوحدة القومية اليهودية بفضل ديانتهم ، وعزلتهم عن الأغيار ، وبلورة هذا المفهوم على ثلاثة أسس هى : الأرض واللغة القومية ، والثقافة القومية .

٣ ـ ومن ثم فقد نادى بإحياء اللغة العبرية ـ كلغة تعامل بين اليهود ، كما نادى بأن تحقيق الهدف الصهيونى بإنشاء الدولة القومية إنما يكون بالعمل السياسى الإيجابى وليس بالحلم بترقب (المشيح) المخلص .

وخلاصة القول فإن (ليوبنسكر) يعد واضع بذور الصهيونية السياسية بتوجهيه النظرى والعملى ، وهو الذى مهد الطريق ووطأه لـ (تيودور هرتزل) الذى وضع الصهيونية السياسية فى حيز التنفيذ .

وكتاب (ليوبنسكر) التحرر الذاتى فى تنظيره يعد أصلاً لكتاب (هرتزل) «الدولة اليهودية» الذى ناقش فيه (هرتزل) المشكلة اليهودية ، ووسائل علاجها حتى قيام الدولة ، والفرق بين (ليوبنسكر) و(هرتزل) أن هذا الأخير كانت له المقدرة على أن يجعل المشكلة اليهودية مشكلة دولية / يهودية ، لا يهودية فحسب، كما أنه خطا بكتاب (الدولة اليهودية) فى سنة ١٨٩٦م خطوات جادة لتفعيل الصهيونية السياسية وتطورها فى المجال السياسى العملى ، لا النظرى .

رابعًا : تيودور هرتزل :

يعد دور (تيودور هرتزل) الدور الأكثر فاعلية من بين كل الأدوار التى اضطلع بها الزعماء الصهاينة السياسيون ، وقد سارت خطواته على الأسس التالية:

١ ـ إن أرض اليهود التاريخية موجودة ، ولا تزال فارغة من السكان ـ هكذا زعم ـ وأنه يطلب من اليهود العودة إلى أرضهم القديمة ، وإعادة بناء دولة لهم عليها ، وإذا كانت الدولة تتكون من شعب له مميزات خاصة ، وأرض يقيم الشعب عليها فإن المادة البشرية موجودة فى العالم ـ خاصة فى أوربا ، كما أن الأرض موجودة فى الواقع الملموس ، كما أن القوة الدافعة لإقامة الدولة موجودة فى واقع المأساة التى يعانى منها اليهود المضطهدون من كل شعوب العالم .

٢ ـ إن العالم الغربى فى حاجة إلى قيام الدولة اليهودية ، ومن ثم فعليه أن يساعد على إقامتها ؛ لأن اليهود برأيه قادرون على نشر الحضارة الغربية والتبشير بها خارج أوربا .

٣ ـ التضخيم من مسألة عداء السامية = عداء اليهود ـ وهو فى رأيه قدرهم الأزلى فى الجماعات المعادية للسامية ، وأن دوافعها طبيعة اليهود أنفسهم فهم يعيشون فيها ، ولا يشاركون أبناء الشعوب التى عاشوا فيها : الأعمال اليدوية ، والحرف الزراعية والصناعية ومع أنهم تحرروا وصاروا مواطنين فى هذه الدول ابتداء من الثورة الفرنسية ، لكن هذا لم يكن كافيًا لحل مشكلتهم ، أو كافيًا لإيقاف معاداة السامية ، لأن اليهودى لم يعلن ولاءه لهذه الشعوب ، بل ظل يثير فيها القلاقل ، بالمشاركة فى الجمعيات السرية الثورية والإرهابية ، فهم يحملون معهم ساميتهم والعداء لها أينما حلوا .

٤ ـ لكن (هرتزل) فى كتاب « الدولة اليهودية » ظل يحرض اليهود على التمسك بساميتهم ، لأنها قدرهم الذى تأتى بالخير لهم ؛ لأن إحساسهم بالاضطهاد يجعلهم يجتمعون ويتضافرون بعكس الشعور بالأمان الذى يمزق الكيان اليهودى الموحد ، ويدمجهم فى الشعوب ، ويضعف الشعور القومى اليهودى ، والانتماء اليهودى .

٥ ـ قيام الدولة اليهودية لن يكون ضارًا باليهود الذين سيبقون فى الشتات ، بل سيكون فى مصلحة كل اليهود سواء فى داخل الدولة اليهودية ، أو الذين يعيشون فى الشتات ، لأن هؤلاء الأخيرين إذا شعروا ببادرة اضطهاد ستكون لهم دولة يلجؤون إليها ، وبذلك تنتهى معاداة السامية ، كما أنهم أنفسهم سيكونون عونًا ماديًا للدولة يمدونها بما تحتاج إليه من مال على شكل تبرعات طوعية ـ بعد أن حققوا ثراء واسعًا فى البلاد التى حلوا بها ، كما أنه يمكنهم تنظيم هجرة اليهود القادمين للدولة اليهودية .

٦ ـ محاولات الاستيطان الأولى فى القرنين ١٨ ، ١٩ لا يمكن أن تحقق قيام الدولة اليهودية ولكنها مع ذلك يمكن دراستها للإفادة من سلبياتها ـ من أجل تجاوزها فى المحاولات الجديدة ، وتدريب اليهود على العمل اليدوى الشاق ، الذى يعد أصل العمل الذى يساعد على الاستيطان والاستقرار ، فى ظل دولة معترف بها من دول العالم .

ويوضح (هرتزل) أن الأفراد مهما كان ثراؤهم ، أو ثقلهم السياسى لا يستطيعون نقل اليهود، ليجعلوا منهم شعبًا، لأن هذا العمل يفتقد إلى القوة الكامنة فى فكرة الدولة ، لا مجرد الاستيطان غير المنظم ، غير المرتبط بسياسة محددة.

٧ ـ إن فكرة الدولة موجودة فى عقول اليهود وقلوبهم فى طول تاريخهم ، وتراثهم الدينى والشعبى، لأن اليهود يحملون حلم الدولة خلال تاريخهم الطويل.

ولم ينس (هرتزل) الصهيونى العلمانى أن يشعل حماس اليهود ومشاعرهم باستخدام الشعار الذى يردده اليهود الأرثوذكس المتدينون ، ليؤكد وجود هذا الحلم فى القلب اليهودى : « العام القادم فى أورشليم » وهو شعار معنوى بحت ، لكن (هرتزل) الملحد آثر أن يفيد منه ، فيطالب اليهود بالتمسك به وتحقيق هدفه .

كما طمأن الذين سيتوجهون إلى الأرض الجديدة = إلى فلسطين بأنهم لن يتركوا مدن الغرب الحديثة المتطورة إلى الصحراء ، حيث العيش فى أكواخ ـ بل سيضمن لهم العيش فى بيوت جميلة حديثة ليقيموا منها حضارة مجتمعهم الجديد، مثل حضارة أوربا .

٨ ـ ولكى تسير خطة الهجرة إلى فلسطين فى طريقها الصحيح ، فإن (هرتزل) يرى أن تبدأ الهجرة بفقراء اليهود ، الذين يريدون تحسين أوضاعهم الاقتصادية ، كما يريدون تحقيق حياة أرغد من التى يحيونها فى بلاد الشتات ، خاصة من بين هؤلاء الذين يجيدون الأعمال اليدوية مثل الزراعة والصناعات الصغيرة ، وغير ذلك من الحرف التى تحتاج إليها البنية التحتية فى المجتمعات الناشئة ـ قبل أن يأتى الأغنياء ، ونخب المثقفين ، ورجال المال والإدارة ، الذين سيأتون فيجدون الذين سبقوهم إلى الأرض الجديدة ـ وقد تحسنت أحوالهم واقتربوا ماديًا وفكريًا من طبقة النخبة ، وبذلك تضيق الفوارق الاجتماعية بين طبقات المجتمع فى البيئة اليهودية الجديدة .

٩ ـ إن هجرة اليهود من المجتمعات الأوربية ، ستنعش اقتصاديات هذه المجتمعات بعد مغادرة اليهود لها ، ذلك بأن اليهود مهروا فى أعمال التجارة والسمسرة والربا ، فجمعوا المال فى أيديهم وخزائنهم ، وهم بتركهم سوق المال والأعمال الاقتصادية فى البلاد الأوربية سيتركون مكانًا لأهل البلاد ليأخذوا مميزات السوق التجارية التى أُفرغت من نشاط اليهودى المالى ، وبانتهاء مناقشة اليهود لهم فى هذه الأسواق سيحققون بالتأكيد مكاسبهم فى قطاعات المال ، وبالتالى فستنتهى معاداة السامية فى هذه البلاد ، كما ستنتهى الاضطرابات والقلاقل الداخلية التى يسببها اليهود .

١٠ ـ وكان (هرتزل) يرى ضرورة أن يتحول اليهود إلى قوة مؤثرة فى المجتمع الدولى ، لذا كان يكرر فى كتاب الدولة اليهودية عبارة : إن الأمة التى لا تملك القوة ، أمة بلا روح ، وبدون حياة روحية ، وهكذا استخدم القوة بمعناها القومى الألمانى .

١١ ـ ضرورة إنشاء مؤسستين يضطلعان بتنفيذ فكرته :

الأولى : مجتمع اليهود .

الثانية : الشركة اليهودية التى توفر الموارد المالية اللازمة لإنشاء مجتمع يهودى، على غرار الشركة البريطانية التى مكنت إنجلترا من الاستيلاء على جنوب إفريقيا ، وتوطين الإنجليز البيض بها ، وكان مثله الأعلى فى ذلك رودس الاستعمارى البريطانى .

بالإضافة إلى هاتين المؤسستين اقترح (هرتزل) إنشاء هيئة ثالثة أطلق عليها : المجموعات المحلية التى ستساعد بدورها فى تسهيل عملية تهجير اليهود المنتشرين فى البلاد المختلفة .

وفى الفصل الثانى من كتاب الدولة اليهودية : بدأ (هرتزل) بعرض المسألة اليهودية ومناقشتها ، فيصف حال يهود الشتات بالخطورة ، فهم مضطهدون بكل مكان ولا يشاركون فى المناصب العامة فى جيوش الأمم، أو فى المؤسسات العامة، ولا يمر يوم إلا ازدادت الهموم عليهم ، فى الجمعيات التشريعية ، والصحافة ، والإعلام ، والكنائس والمؤتمرات ، حتى صار وضع اليهود مهدداً بالخطر ، خاصة الطبقة الوسطى ، وهى مادة المجتمع فمنها رجال الإدارة والسياسة ، والأطباء والمحامون، والكتاب والمدرسون، وغيرهم من أصحاب المهن من اليهود، أما أثرياء اليهود فيعيشون بمعزل حتى صاروا هدفًا لحقد الطبقة الدنيا من اليهود ، وهكذا تتولد القلاقل والأحقاد ، التى يثيرها اليهود المنغمسون فى الجمعيات السرية.

١٢ ـ أن يقبل اليهود أية أرض تمنح لهم : الأرجنتين أم فلسطين ؟! والأرجنتين من أخصب أراضى الدنيا ، وذات مساحة شاسعة ، وليست كثيفة السكان وذات مناخ معتدل ، ولكن حكومة الأرجنتين تبدى بعض القلق فى الوقت الحاضر من تسلل اليهود إليها .

أما فلسطين فإنها الوطن التاريخى الذى لا ينسى ، فإذا وافق جلالة السلطان عبد الحميد على إعطائنا فلسطين، فيمكن أن يتولى اليهود حل مشاكل تركيا المالية.

كان (هرتزل) يفضل أرض فلسطين من وجوه كثيرة ـ أن للدول العظمى مصلحة فى ذلك لأنها ستكون حائط دفاع لأوربا فى آسيا ونقطة أساسية وسط البربرية العربية ، ومن ثم فإن أوربا ستضمن وجودها وبقاءها .

١٣ ـ أما الأماكن المسيحية المقدسة ، فيمكن أن توضع تحت أى شكل يتفق عليه من الحماية الدولية ، أو الإشراف الدولى .

وفى خاتمة الكتاب يقول (هرتزل) إن اليهود فى الدولة اليهودية سيكون لهم أعداء من العرب ، ولكنهم مع ذلك سيستقرون فى أرضهم ، ولن يغادروها إلى الشتات مرة أخرى ، ولن ينفوا مرة أخرى إلا إذا دمرت الحضارة الغربية .

١٤ ـ إن إنشاء الشركة اليهودية ، سيأتى بالعون من كل أقاصى الأرض ، وسيجد المثقفون من اليهود مكانًا لهم فى المنظمات اليهودية : أساتذة وإداريون وأطباء ومحامون ، وإن اليهود الذين يريدون هذه الدولة سيحصلون عليها ، وسيتحرر العالم . . . وما سنعمله ها هنا، سيكون لخيرنا ، وخير الإنسانية جمعاء.

لقد صاغ (تيودور هرتزل) كتابه فى الدولة اليهودية ـ علاجًا ـ كما زعم ـ لمشكلة التوتر بين الإنسان اليهودى والعالم ، بمنطق يلائم طبيعة العقل الغربى ، يقوم على القوة المادية بالمعنى القومى الألمانى ـ إذ كانت ثقافته ألمانية ، وكان فكر (هرتزل) السياسى يطابق ثقافته التى تأثر فيها من القومية الألمانية ، التى ترى أن الشعب الألمانى يرقى على كل الشعوب ، وهى فكرة عميقة الجذور فى النفس اليهودية: «إنهم شعب الله المختار» ولهذا كانت تجمعات اليهود منذ الماضى السحيق تجمعات عنصرية قبلية ، وكل الذى فعله « تيودور هرتزل » اليهودى العرق ، ذو الثقافة الألمانية أنه حاول أن يتذكر ذلك ـ ويذكر اليهود به ، ومع أن هرتزل وصم اليهود بصفات متدنية مثل : إنهم مقلقون أينما حلوا ، وأنهم مصدر تهييج وتمرد وشغب ، أو أنهم استغلوا العالم منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث فى مجالات : المال ، والتجارة ، والتسويق ، والربا وما شابه ذلك ، أو أن اليهود عنصر لا يمكن الاطمئنان إليه فى أى وقت من الأوقات ، بالرغم من كل ذلك فقد نجح (تيودور هرتزل) فى أن يجعل الخيال واقعًا ، وواقع العرب نكبات .

---

(١) راجع د. محمد خليفة حسن : الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى ـ الباب الثالث : الفصل الأول .

الصهيونية السياسية القتالية

بدأت الصهيونية القتالية فى روسيا القيصرية قبل قيام الثورة البلشفية فى ظل نظام الإقطاع الروسى ، إذ كان الإقطاعيون يتركون إدارة أموالهم إلى اليهود وكان الفلاحون يرون فيهم وسائط شريرة تقف بينهم وبين ملاك الأرض التى يعملون فيها ، ولذلك كان الفلاحون يكرهونهم أكثر مما يكرهون ملاكهم ، خاصة وأن عمل اليهود لم يقتصر على تحصيل الأموال من الفلاحين ، ولكن اليهود كانوا بجانب ذلك يستغلون الفلاحين أسوأ استغلال بأعمالهم الربوية إلى أن جاء وقت فرغ فيه صبر الفلاحين فقاموا بالثورة عليهم ، ثم أخذت الأمور تتفاقم حتى حدثت مذابح اليهود التى عرفت بمذابح (البوجروم) فى جنوب روسيا ، حيث يتكثف الوجود اليهودى .

وفى (بوجروم كشنيف) أمر (ألفون بلهيف) وزير داخلية روسيا فى سنة ١٩٠٣م حاكم المنطقة بأن يمنع الشرطة من التدخل فأئخن الفلاحون الذبح فى اليهود الذين بدوا وكأنهم خراف استسلموا للذابح فى مذلة ومهانة .

ولكن (بوجروم أوديسا) فى سنة ١٩٠٨م لم يستسلم اليهود للمذابح كما كان يحدث من قبل ، فقد حدث أن تحول عدد كبير منهم إلى مدافعين عن اليهود ومن هؤلاء تكونت أول فرقة قتال يهودية ، منذ أن أفنى الرومان آخر فرقة قتال لهم فى تاريخهم قبل الميلاد منذ ألفى سنة ، وبرز من بين مقاتلى فرقة بوجروم سنة ١٩٠٨م (فلاديمير جابوتنسكى) الذى هرب بعد ذلك من روسيا ، وكون فرقة قتالية انضمت إلى قوات الحرب العالمية الأولى ثم كانت نواة عصابة الهاجاناة العسكرية التى تزعمها (مناحم بيجن) تلميذ (جابوتنسكى) التى كانت بدورها نواة جيش الكيان الصهيونى .

ولقد ساهمت إنجلترا فى تأسيس الجيش الصهيونى ، عندما قبلت تأسيس فرقة البغالة اليهودية فى الحرب العالمية الأولى فى مصر ، حيث تكونت فرقة راكبى

البغال من يهود جاؤوا من فلسطين ، وشباب يهود الإسكندرية للمشاركة فى أعمال الحرب ، مع القوات البريطانية » (١) ، كما سمحت للكتيبة ٣٨ أول قوة محاربة يهودية فى الحرب العالمية الأولى ، وكذا الكتيبة ٣٩، ٤٠ وقد بلغ عدد هذه الوحدات المقاتلة فى سنة ١٩٤٩م ٥٠٠٠ خمسة آلاف جندى يهودى ، ومن هذه الكتائب الثلاث تكونت عصابة (الهاجاناة = الدفاع) التى أصبحت ـ بعد ذلك ـ نواة الجيش الصهيونى وهى العصابة التى نالت دعمًا مباشرًا ، وغير مباشر من بريطانيا فى زمن الانتداب البريطانى على فلسطين ، وكان أهم رجالها فلاديمير جابوتنسكى مؤسسها ، ثم (مناحم بيجن) رئيس وزراء إسرائيل الأسبق .

ويمكن تلخيص دور بريطانيا فى تكوين نواة الجيش الصهيونى = الهاجاناة فى المراحل الثلاثة الآتية :

١ ـ السماح للهاجاناة بالنمو .

٢ ـ المساعدة فى تزويد الهاجاناة بالتدريب العسكرى .

٣ ـ تزويد الهاجاناة بالسلاح ، والسماح لها بالحصول عليه ، وتشجيعها على ذلك (٢) .

ومع أن منظمة الهاجاناة لم تكن منظمة رسمية ، لأنها لم تكن تتبع دولة معترف بها ، ومع أن إدارة الانتداب البريطانى على فلسطين لم تمنحها رخصة رسمية لإثبات شرعية وجودها ، إلا أنها كانت تتعاطف معها وتعاملها بعطف شديد ومودة بل تساهلت إزاء وجودها ونموها الملحوظ ، وتهديدها المستمر للعرب الفلسطينيين أصحاب الأرض .

ثم خطت إدارة الانتداب البريطانى على فلسطين خطوة عظمى فى سنة ١٩٢٦م فمنحت بعض أعضاء منظمة الهاجاناة صفة الشرعية ، وشكلت منهم قوة شرطة زائدة عن العدد المقرر ، بذريعة الدفاع عن المستوطنات الصهيونية ، بل إن

---

(١) نبيل عبد الحميد : اليهود فى مصر بين قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨م والعدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م ، ص ٣٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩١م .

(٢) أسعد عبد الرحمن : المنظمة الصهيونية ، ص ١٦٨ .

بريطانيا أجرت اتفاقًا مع الهاجناة بين الهاجاناة ، وفرع خاص فى قيادة منظمة الشرق العربى (الأوسط) يعرف بـ G . S . I . J فى أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم جرى وفقًا لذلك الاتفاق تسليح (الهاجاناة) وتدريبها على طريقة العصابات ، وجرى تدريبهم تحت إشراف إدارة الانتداب البريطانى بمدرسة تدريب سرية فى المنطقة الجردية إلى الجنوب الشرقى من حيفا ، بالإضافة إلى تدريب صهيونيين على يد بريطانيين ـ للفرق الصهيونية ـ داخل الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الثانية إذ انضم أكثر من ٢٠٠٠٠ عشرين ألف يهودى إلى القوات البريطانية .

وفى خريف سنة ١٩٤٤م سمحت بريطانيا بإنشاء كتيبة يهودية لا تضم غير اليهود ـ ثم أضيف إليهم وحدات أخرى على أساس كتائب يهودية تابعة للوحدة الفلسطينية ، للدعم والمساعدة من بين اليهود الفلسطينيين ، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان عدد اليهود المسلحين الذين خدموا فى القوات المسلحة البريطانية ٢٦٠٠٠ ستًا وعشرين ألفًا من اليهود الفلسطينيين وكان على رأسهم (موشى ديان) الذى أصبح رئيسًا لهيئة أركان حرب « جيش الدفاع الصهيونى ، ثم صار وزيرًا للدفاع فى الحكومة الصهيونية بعد ذلك » (١) .

وكان تشرشل رئيس وزراء بريطانيا فى أثناء الحرب العالمية الثانية ـ يرحب بأمر تسليح اليهود ، وتأسيس جيش يهودى قوى ، وتدريبه فى مصر بعيدًا عن أنظار عرب فلسطين ، وهو ما ألمح إليه د. نبيل عبد الحميد بـ « الفيلق اليهودى للمساهمة مع إنجلترا فى العمليات الحربية فى فلسطين » (٢) ، وكانت السلطات البريطانية فى مصر وفلسطين فى ذلك الوقت ، تساعد اليهود فى تهريب السلاح إلى أرض فلسطين ، بل أقدمت على توزيع السلاح على فرق الهاجاناة » .

كذلك منحت سلطات الانتداب ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألفًا من اليهود كانوا يشكلون قوة أمن المستوطنات ببنادق إنجليزية بمعدل بندقية إنجليزية الصنع لكل واحد منهم ، وكانت هذه القوة تعمل فى الوقت نفسه فى قوات الهاجاناة .

---

(١) راجع أسعد عبد الرحمن : المنظمة الصهيونية ، ص ١٦٨ ـ ١٧١ .

(٢) د . نبيل عبد الحميد : اليهود فى مصر، ص ٣٧، وأسعد عبد الرحمن : المنظمة الصهيونية ، ص ١٧٠ .

ويلخص الكاتب الصهيونى (أرثر كوستلر) نتاج المساعدات البريطانية العسكرية للصهيونية بقوله: «حقق المحاربون القدامى فى الجيش اليهودى، ما كانت ترمى إليه الإدارة البريطانية تمامًا ، أى إنهم كانوا يشكلون نواة الجيش الإسرائيلى الذى أصبح جيش إسرائيل نفسه ، الذى كان العامل الحاسم فى التغلب على العرب » (١) .

وكانت أصول الذين أقاموا الصهيونية السياسية القتالية من يهود روسيا وبولندا وأوكرانيا، وكانوا القوة الصهيونية العسكرية التى عضدت كل من الصهيونية الدينية والصهيونية السياسية ، ولقد بارك الحاخامات هذا التحول القتالى فى الصهيونية بفتوى جاء فيها : « إنه طالما أجاز الدين تجاوز القواعد والنواهى من أجل إنقاذ حياة يهودى واحد ، فإنه يمكن توسيع الفتوى بحيث يحل تأسيس قوات قتالية يهودية ، من أجل إنقاذ المجموعات اليهودية من القتل » (٢) .

ومع أن جابوتنسكى صهيونى علمانى ، فقد رحب بفتوى الحاخامات على أساس أنها إحدى الأطروحات الصهيونية الأساسية ؛ ذلك لأن الصهاينة التصحيحيين من أمثال : (هرتزل) و(ماكس نوردو) و(جابوتنسكى) وإن خالفهم هذا الأخير فى الوسائل ، يقبلون كل الأطروحات سواء كانت دينية أو علمانية ما دامت تخدم قضايا الصهيونية السياسية العلمانية .

أسس (جابوتنسكى) منظمة بيتار [اختصار لعبارة : عهد = بيت يوسف ترومبلدور] وكان شعارها الغزو أو الموت، وكان (جابوتنسكى) مستوعبًا للرؤية المعرفية الإمبريالية خاصة عند (توماس هوبز) الإنجليزى فى كتاب (التنين Laviathan) الذى رأى فيه أن العالم ساحة صراع بين الأقوياء ، حيث يتصارع الجميع ، كما تأثر بفلسفة (دارون) فى النشوء والارتقاء والبقاء للأقوى ، كما تأثر بفلسفة (نيتشه) فى أن الإنسان الأعلى هو مركز الكون ، كما تأثر بصفة خاصة بالمفكر الفاشستى (أنطونيو لابريولا) فقد كان مولعًا بنظريته فى الإرادة الإنسانية التى تؤكد قدرة الإنسان على صياغة المستقبل بإرادته ، ولذلك فقد كان نداء (جابوتنسكى) الدائم ضرورة أن يتعلم اليهودى ذبح الأغيار .

---

(١) أسعد عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٧١ .

(٢) خالد القشطينى : تكوين الصهيونية ، ص ١٦٠، ١٦١ .

ولقد أسس جابوتنسكى منظمة بيتار فى سنة ١٩٢٣م وفى سنة ١٩٢٥م أسس الإتحاد العالمى للصهيونية التصحيحية ، بحسب الصيغة الهرتزلية للصهيونية .

وكان جابوتنسكى صهيونيا لا دينيًا ، فقد رفض الدين اليهودى رفضًا قاطعًا وكان يصرح بأن الشعب القومى اليهودى هو المعبد الذى يجب أن يتعبد له وفيه ، ومع أنه لم يكن يعرف الديانة اليهودية بقدر كاف إلا أنه فى سنة ١٩٣٢م صرح بأنه لا يمانع فى توظيف الدين اليهودى فى خدمة الصهيونية السياسية التصحيحية .

ولم يختلف (جابوتنسكى) عن كل الزعماء الصهاينة السياسيين من أمثال (هرتزل ونوردو) فى الأفكار الصهيونية الأساسية التى تتلخص فى أن الشعب العضوى اليهودى شعب منبوذ ، ويشكل جسمًا غريبًا فى المجتمعات التى تلفظه ، وأن التراث الدينى اليهودى ليس مصدر هوية اليهود ، ولذا يمكن الاستغناء عنه ، لأن مصدر هويتهم معاداة اليهودية (اللاسامية) وكراهيتهم ، وأن معاداة اليهود مبدأ ممتاز فى توافقه مع كينونة الشخصية اليهودية ؛ لأنه يدفع الدول الأوربية إلى ضرورة تفريغ القارة الأوربية منهم وإحلالهم بأرض فلسطين، وتكوين دولة خادمة للاستعمار الغربى منهم فى المنطقة العربية، وكان الهدف الذى ترسخ فى رأسه قول (ماكس نوردو) : « سنجىء إلى فلسطين لنوسع حدود أوربا ، ونصل بها إلى الفرات ، وبذلك يصبح الكيان الصهيونى فى فلسطين جزءًا من التشكيل الحضارى الغربى » [١] .

---

(١) للاستزادة ، ارجع إلى عبد الوهاب المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٦/ ٢٥٥ ـ ٢٦٢ .

ثالثًا : الصهيونية السياسية والعلمانية

أو المشاكلة اليهودية فى العصر الحديث

فعل « مندلسون » فى الدراسات التوراتية ، فعل مارتن لوثر بالدراسات البروتستانتية ، وحاول صياغة النسق الدينى اليهودى من الداخل بحيث تتكيف اليهودية مع العلمانية بماديتها وعقلانيتها ، لتصبح كل منطلقات اليهودية الدينية والفلسفية ذات طابع نسبى تاريخى، لا تختلف فى بنيتها عن أية بنية فكرية علمانية.

وترجع بدايات « العَلْمَنة » فى أوربا إلى الحركة الإنسانية ، وحركة الإصلاح الدينى التى قام بها (مارتن لوثر) = البروتستانتية، فقد عمل الفكر الإنسانى (الحركة الإنسانية = الهيومانيزم) على استبعاد الإله ـ وحققت مبادئ (البروتستانتية) إحلال الإله فى الإنسان والطبيعة « من خلال مفارقته لهما إلى حد التعطيل » على حد قول د. عبد الوهاب المسيرى .

ولقد رأى (فرويد) عالم النفس اليهودى العلمانى أن هناك توافقًا بين اليهودية والبروتستانتية ، فكلاهما يدعو إلى التوحيد دين (الوهيم) الذى نادى به موسى ، وإن كان هذا مقررًا عند (فرويد) عالم التحليل النفسى ، إلا أنه دليل على نجاح اليهودية فى خلال بضع مئات من السنين منذ حركة (مارتن لوثر) ، وإلى الآن فى احتواء القوة الدينية النامية فى الغرب ـ قوة البروتستانتية ـ ومن هنا فإن (فرويد) كان « يرى أنه كان ينبغى من الوجهة السلوكية إدماج البروتستانتية واليهودية من وجهة نظرية وعملية لأنهما يمثلان دينا عظيمًا واحدًا » [1] ، وقد نتج عن ذلك فى العقل الغربى البروتستانتى أن التوراة هى النبع الحقيقى للديانة البروتستانتية ، وكان هذا الاعتقاد بمثابة الإيحاء بالقيم الإنسانية العميقة إلى أهل الحضارة البروتستانتية بفضل التوراة ، أى بمعنى آخر فضل اليهودية على المسيحية .

---

(١) صبرى جريس : التراث الصهيونى والفكر الفرويدى ، أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سيجموند فرويد ، ص ١٠٨ .

ومع أن ثورة القس (مارتن لوثر) مؤسس البروتستانتية ـ كانت من أجل الإصلاح الدينى فى الكاثوليكية، إلا أنها كانت الخطوة الأولى فى مسيرة العلمنة، وأولها علمنة الكتاب المقدس، بإخراجه من سلطة الكهنوت (كليروس = Cleros) الكاثوليكى إلى أيدى العوام غير الدينيين = Lacos .

وكانت فرصة الالتقاء مواتية بظهور الإصلاحى اليهودى (موسى مندلسون) فى القرن ١٨ الذى قامت حركته التى عرفت بحركة الإصلاح الدينى اليهودى ، التى أرادت أن تخرج اليهودية الصهيونية من عزلتها ، لتدخلها فى خضم تيار الحضارة الغربية الجارف ، خاصة أن مفكرى اليهود الإصلاحيين استطاعوا أن يقنعوا الغرب بأن الثقافة اليهودية التى صيغت فى التوراة تعد أصلاً من أصول الحضارة الغربية بجانب الثقافتين اليونانية والرومانية ، وهكذا تم الالتقاء بين الثقافة اليهودية والثقافة الغربية .

ثم جاءت الثورة الصناعية ، وعصر التنوير ، وظهور القوميات ، وفلسفات ديكارت وسبينوزا ، وهيجل وماركس ، وفلسفة التطور ، وفلسفة نيتشه ، كل ذلك دعم علمنة الفكر والحياة فى الغرب .

ولما كان اليهود يعيشون فى هذا المجتمع ، وكانوا يعملون فى التجارة ، وأعمال الربا بصفة خاصة ، فقد أصبحوا بقصد أو بغير قصد حملة العلمانية ، ووسيلة فعالة لنقلها وتنقلها فى القارة الأوربية إلى أن تبلور مضمونها فى عبارة «لا توجد علاقة بين الإله وبين العالم » .

ولأن اليهود المشتتين فى البلاد الأوربية من شرقها إلى غربها كانوا من حملة العلمانية وناقليها ، فقد أخذ بعض اليهود يؤمنون بالعلمانية ، وجدواها فى إصلاح حياة اليهود وأوضاعهم فى القارة العلمانية ، ومن ثم ترى أن مضمون الانتماء اليهودى ما هو إلا تراث ثقافى ، ومن هنا فقد استولت الصهيونية على عقول كثير من رموز اليهودية الحاخامية ، وأفرغتها من مضمونها الدينى ، وحولتها إلى مضامين قومية ، وجعلت مرجعيتها عناصر دنيوية (مطلقات علمانية) مثل :

الدولة الصهيونية بدلاً من الإله ـ والهوية اليهودية الدينية .

كما أكدت الصهيونية على أن اليهود مادة بشرية متحركة يمكن تحويلها وتوظيفها ، ومن هذه النقطة بدأ الصهاينة يمجدون عناصر بشرية اختلفت مع الدين اليهودى مثل : سبينوزا ، وماركس ، وفرويد ، وشبتاى تسفى ، فمع خروج هؤلاء على الإيمان اليهودى ، فإن المنظرين الصهيونيين اعتبروهم أبطالاً قوميين منبثين من قلب الدين اليهودى .

كذلك أثرت العناصر الدنيوية (المطلقات العلمانية) على الأعياد الدينية اليهودية التى لم تعد تتم انطلاقًا من مضمون دينى، كما جاءت فى التراث العبرانى ، فقد تحولت إلى أعياد قومية من حيث انتماء عرقى / إثنى . كما صارت الدولة الصهيونية معبدهم أو هيكلهم ، وأعضاء الحكومة هم الحاخامات ، فهم يعبدون الدولة الصهيونية ، لا إله التوراة ، ثم صار تقديس الأرض والشعب الصهيونيين دولة الإله ، جوهر الأيديولوجية الصهيونية العلمانية ، كما أنهم صاروا لا يعبؤون إذا ما وصف أحد الحاخامات الأرثوذكس الدولة الصهيونية ، باليهودية الوثنية .

ولقد طالت العلمنة العبادات اليهودية وشعائرها ، فحدث اختلاط بين الجنسين فى أثناء الصلاة ، وكان محرمًا ، وألغى شرط غطاء الرأس فى أثناء الصلاة ، وتم ترسيم النساء حاخامات، وخففت شعائر السبت ، وتم التخلى عن التلمود كمصدر أساسى للتشريع ، وحلت الهوية اليهودية القومية ، محل العقيدة اليهودية ، وصار من الشائع أن يسمع عبارة « اليهودية العلمانية » و« اليهودية الوثنية » و«اليهودية الإنسانية » فى مقابل « اليهودية الحاخامية » ، وتدور كل هذه العبارات غير الدينية حول مطلق واحد هو الشعب اليهودى ، وتحولت الشعائر والعبادات اليهودية إلى تراث قومى ، وصارت الهوية المصدر الوحيد للقداسة ، وطرحت فكرة أن الذى يجمع اليهود ليس الإيمان الدينى ، وإنما الإيمان بقوميتهم [1] .

وصارت الإثنية هى المرجعية اليهودية القومية ، فإن (إثنوس) = قوم = جماعة لها صفات مشتركة تستند إلى تراث تاريخى مشترك ، وثقافة واحدة مشتركة، وهوية مشتركة ، ولا يربطها بالضرورة رباط عرقى ، أو إيمان دينى يهودى .

---

(١) راجع تفاصيل ذلك فى : المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية ٣/ ٣١ ـ ٣٦ .

كانت هذه الأفكار المنبثقة من الفكر العلمانى الغربى مرجعية الصهاينة العلمانيين الذين رفضوا الرؤية الدينية فى بناء الدولة ، وكانت هى نفسها الأفكار المسيطرة على الصهيونية السياسية ، ولقد طبقت الصهيونية العلمانية كل الأفكار التى ساعدت على تطور الحياة ـ بعيدًا عن الرؤية الدينية فى بناء الدولة اليهودية .

ولقد طبقت الصهيونية العلمانية كل الأفكار التى ساعدت على التقدم الأوربى بعيدًا عن الرؤية المسيحية فى أوربا التى بدأت فى القرن ١٧ ورسمت لها السير فى نسق علمانى ، وهو النسق نفسه الذى سارت فى دروبه الصهيونية السياسية الرامية إلى استيطان أرض فلسطين فيما بعد ، مثل الإيمان بفكرة التقدم والاستنارة ، وأن القوة هى أساس كل شىء .

ويمكن أن تلخيص مسيرة حياة اليهود فى المجتمع الغربى على الوجه التالى : كان عصر التنوير ، والثورة الفرنسية ، انفراجًا أضيف إلى ما حفظ اليهود من ثمار الانشقاق الدينى الكاثوليكى / البروتستانتى ، ففى هذه المرحلة من تاريخ أوربا أُعطِى اليهود عطايا كانوا محرومين منها من قبل مثل: حق المواطنة، وحق الحرية، وحق المساواة فضلاً عن انعدام التسامح الدينى فى المجتمع المسيحى ، ولكن مع أنهم تمتعوا بهذه الحقوق ، فقد برز فى الأوربيين الشعور القومى، وظهرت نظريات تقول بتفوق بعض الأعراق ، وانحطاط بعضها الآخر ، وحفزت هذه النظريات الأوربيين بصفتهم قوميين إلى النفور من اليهود الذين يختلفون معهم فى أصولهم العرقية .

وكان بعض الملوك الأوربيين قد منح اليهود بعض الامتيازات فى فترات متفاوتة ، ولكن التحرير بمعناه الحقيقى لم يتم إلا بعد قيام الثورة الفرنسية ، وبعد أن أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية فى ١٧٩١/٩/٢٧م قرارًا يعطى اليهود الفرنسيين حق المواطنة ، وأن يكون لهم حقوق المواطن الفرنسى ، وعليهم كل واجباته ، وكان طبيعيًا أن تصدر حكومة الثورة هذا القرار اعتمادًا على وثيقة حقوق الإنسان والمواطن التى نصت على :

١ ـ أن الإنسان خلق حرًا متساويًا مع كل الناس فى الحقوق ، فالتمييز المدنى يجب ألا يقوم إلا على أساس الخدمة العامة التى يقدمها المواطن للوطن .

٢ ـ أن الهدف النهائى لجميع التجمعات السياسية : المحافظة على حقوق الإنسان الطبيعية كاملة وهى الحرية ، والملكية الفردية ، والأمن ومقاومة الظلم .

٣ ـ لا يضطهد إنسان بسبب آرائه ، ومعتقداته ، ولو كانت دينية بشرط ألا يؤدى اعتناقه لها إلى الإخلال بالأمن والنظام القانونى .

وفى سنة ١٧٩٦م تحرر يهود هولندا .

وفى سنة ١٧٩٧م انتخب بعض اليهود أعضاء فى البرلمان الهولندى ، وفى العام نفسه تحرر يهود إيطاليا .

وما أن حلت سنة ١٨٧٠م إلا وقد تحرر كل يهود أوربا ، وأصبحوا مواطنين فى البلاد التى يعيشون فيها .

كانت الحياة فى أوربا العلمانية قد تحولت إلى مؤسسات مدنية ، بعيدة عن الدين، وأصبح من المعترف به ألا يتدخل الدين فى التعليم، والمال وإدارة شؤونه، وألا تتدخل المؤسسات المدنية فى الدين .

لقد تحولت كل أنشطة الحياة فى أوربا إلى دوائر لا ينبغى أن تتدخل إحداها فى مجال الدائرة الأخرى ، لكن ـ مع ذلك ـ فقد أحس اليهود أنهم خارج هذه الدوائر جميعًا ، فقانون عزرا وتعاليمه أخذت منهم العِرق والدم ، وتعاليم التوراة والتلمود لا تفتأ تحيرهم وتقلقهم ، فهى لهم دينهم ، وللمجتمعات الأوربية ومؤسساتها المدنية فى دوائر : الثقافة والاقتصاد والسياسة والاجتماع لها دين آخر، فإذا أضيف إلى ذلك النزوع الأوربى إلى عرقية الرجل الأبيض ، بالإضافة إلى المشاعر القومية الغالية زاد إحساس اليهود بالاغتراب داخل الأوطان الأوربية فكيف يكون اليهودى مواطنًا فرنسيًا أو هولنديًا ، أو إنجليزيًا مثلاً ، ويقيم التوراة والتلمود فى حياته وفكره .

لقد وجدت اليهودية نفسها تقف فى مواجهة العلمانية التى حررت اليهود ، وجعلتهم يتساوون مع مواطنى الدول ، وحققت لهم الحرية ، ولكنها فى ذات الوقت قضت على أهم معلم يميز الشخصية اليهودية ، التى تتخذ من كتبها المقدسة القوة على البقاء والاستمرار فى الحياة ، ولقد كان اليهود يحسون دائمًا بأن وطنهم

كامن فيهم بتمسكهم بتعاليم كتبهم المقدسة ، أما الآن فقد تحول الوطن عند الإنسان الأوربى إلى أرض واقتصاد ، أرض ذات حدود جغرافية ، واقتصاد حر يتميز به الفرد الأوربى على اليهودى ، الذى لم يكن يملك أداة تفوق ، يتفوق بها على غيره إلا إدارة الأعمال المالية والتجارية والربوية .

صار وطن الأوربى المسيحى : أرضًا ومالاً وكسبًا ، وويل للدين إذا تدخل لكى يحُول دون هذه المكاسب التى كافحت أوربا طويلاً لعدة قرون لكى تصل إليها بفكر (توماس هوبز) ، و(جون لوك) و(سان سيمون) و(أوجست كونت) و(مونتسكيو) وغيرهم ، وظل وطن اليهودى عنصريته ، وانفراديته ، واختيار الله له بزعمه ـ وهكذا كان يفكر اليهودى منذ زمن عزرا حتى العصور الحديثة ، وحتى اليهودى غير المتدين ، فإن هذه المبادئ تسرى فيه مسرى الدم فى عروقه ، وتكون عناصره النفسية ، ولا يقدر على الخلاص منها ، لأنه لا يقدر على التخلص من دمه الذى يسرى فى عروقه .

بهذه المبادئ والتعاليم كان اليهودى فى كل مكان بالعالم يمثل وحدة عضوية فى الكيان اليهودى العام الذى منه عنصره وكيانه ، وجوهره النفسى والعصبى ، وهو أيضًا دينه ووطنه ، وكان على اليهودى إذا اختار مكاسب التحرير ، أن يقع فى خطر السقوط داخل عناصره المكونة له ـ فكيف يحافظ اليهودى على نداء التحرر ونداء العنصرية فى الوقت نفسه ، لماذا لا يعمل فى عصر العلمنة بقانون عزرا ، وبعث مملكة داود اللتين فى حلمهما يعيش اليهود يهودًا غير واقعين تحت أى مؤثر خارجى ، ويبقى منهم فى الشتات من يعينون هؤلاء على بقاء عنصرهم ، أما الذى أعاد إلى ذاكرتهم نداء عزرا القديم فهو (مندلسون ١٧٢٩ ـ ١٧٨٦م) مع أنه علمانى لا دينى إذ قال لهم : « أيها اليهودى وافق دستور الدولة الذى تحل فيها ، ولكن فى ذات الوقت كن أمينًا على دين آبائك وأجدادك » (١) .

كان مندلسون يرى وجوب أن يظل اليهودى عضوًا فى جماعة إثنية لا دينية ، وأن يكون ولاؤه للدولة وحدها ، أما ولاؤه الدينى فيخصه فى عبادته ، ولا يخص انتماؤه للدولة .

---

(١) إسماعيل الفاروقى : الملل المعاصرة فى الدين اليهودى ، ص ٤١ نقلاً عن (مندلسون) القدس Jerusalem 3 /358 Leipzig 1843 .

كان (مندلسون) يرى أن اليهودية لا تطلب الإيمان بأية عقائد خاصة بالخلاص المشيحانى ، وأن الوصايا العشر لا تتحدث عن الإيمان ، بل عن السلوك الذى يجب أن يلتزم به اليهودى فى حياته ، وأن العقل هو الذى يصل إلى العقائد الجوهرية ، والوحى يقرر الشعائر الخاصة المحلية ، ويتبع (مندلسون) فى هذا كما يرى د. المسيرى : « تمييز عصر العقل والاستنارة بين الحقائق العقلية ، والحقائق التاريخية أو الدنيوية ، فالأولى لا تتطلب سوى عملية عقلية لإثباتها وتقبلها فهى عامة ومجردة ، أما الثانية فتتطلب قرائن حسية لإثباتها فهى محددة بالزمان والمكان » .

أعاد (مندلسون) تعريف اليهودية تعريفًا إثنيا، وهذه هى الصياغة الصهيونية، فإن الذى يميز اليهود عنصرهم الإثنى ، والشعائر الدينية تقتصر على الربط فيما بينهم.

كان اليهود العلمانيون يريدون إعادة صياغة النسق الدينى اليهودى من الداخل لكى تتكيف اليهودية مع العلمانية بماديتها وعقلانيتها ولتصبح كل منطلقات اليهودية الدينية والفلسفية ذات طابع نسبى تاريخى ، بحيث لا تختلف فى بنيتها عن أية بنية فكرية علمانية ، مع أن هؤلاء اليهود العلمانيين فى عملية علمنة اليهودية استخدموا المفردات الدينية ذاتها ، ومصطلحاتها لتتوافق مع روح العصر (١) .

يقول (مندلسون) : « أنا لا أومن بأية مبادئ سوى التى يتفهمها العقل الإنسانى، التى يمكن تبينها وبرهنتها للفكر الإنسانى ، لقد أخطأ من ظن أنى بقولى هذا خرجت عن دين الأجداد ، ويترتب على هذا الظن على إدراك خاطئ للدين اليهودى ، بل الأمر على عكس ذلك ، فهذا أمر لازم للدين اليهودى ، وهو بذلك يختلف تمام الاختلاف عن الدين المسيحى . إن الدين اليهودى لا يعترف بأية عقيدة من وحى السماء بالمعنى المفهوم عند المسيحيين ، فلليهود شريعة إلهية مختلفة من قوانين وأوامر ، وسنن ومبادئ أخلاق ، وسلوك يرمى إلى تحقيق السعادة فى الدنيا ، وهذه كلها أوحيت إليهم من قبل موسى ، ولكنها ليست عقائد ، وليست حقائق ترمى إلى الخلاص ، وليست مبادئ عامة قابلة للبرهان العقلى (٢) .

---

(١) راجع : المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٣/ ٨٦ ، ٥/ ٤١٣ .

(٢) إسماعيل الفاروقى : الملل المعاصرة فى الدين اليهودى ، ص ٣٦ ، ٣٧ عن مندلسون أورشليم ٣/ ٣١٩.

بدأت إرادة التغيير عند (مندلسون) بترجمة التوراة ، وقصد بذلك العمل الاستعاضة عن التلمود والقابلاه اللذين شغلا الدراسات الدينية لدى الجماعات الدينية اليهودية ، وكان فى ذلك مقلداً للمصلح الدينى البروتستانتى (مارتن لوثر) الذى أبعد عن البروتستانتية الإيمانية بقدرات القديسين ، وتقديس (الأيقونات) وما أشبه . ثم دعا (مندلسون) إلى تغيير مناهج التعليم ، وإنشاء مدارس لتدريس العبرية واللغات العصرية ، والرياضيات ، وكافة العلوم الحديثة » (١) .

وبعد موت (مندلسون) فى سنة ١٧٨٦م قاد حركة الاستنارة من بعده (دافيد فريد لاندر) الذى دعا إلى مزج اليهودية بالبروتستانتية باعتبارها المذهب المسيحى المتحرر . ثم جاء (ليوبولد رونز) الذى دعا إلى نشر قيم الحضارة اليهودية على العالم ونجحت حركته التى قامت على تأسيس مدارس حديثة ، وإنشاء جمعيات نشر المعارف اليهودية: «ونتج عن ذلك قبول الفكر اليهودى الصهيونى قبولاً كاملاً واعتبار اليهودية الخلفية التاريخية والروحية لحضارة الغرب ، وقبول العهد القديم أساسًا فى الأخلاقيات الغربية» (٢) . مع التركيز على حقيقة أن اليهود يمثلون وحدة اجتماعية واضحة المعالم ، منفصلة أيديولوچيا عن المجتمعات التى تعيش فيها.

ثم جاء (هرمان كوهين) ليعمل على بلورة السياسة الصهيونية فى دعوتها إلى قومية يهودية ـ والتقى فكره مع فكر (فرويد) فى أن لليهود صفات تميز الخلق اليهودى ، بل كانت دعوته تمثل الإطار للفكر الدينى فى العصر الحديث للعمل السياسى العنصرى ، أى الصهيونية المعاصرة ، مثلما كان التحليل النفسى الفرويدى إطارها العلمى النفسى » (٣) .

وكان الهدف النهائى عند كل هؤلاء : تحديد العناصر المميزة للذاتية اليهودية ، والوجود القومى اليهودى التى مهدت لتثمر اليهودية الصهيونية فى نهاية القرن ١٩ التاسع عشر .

ومن هنا بدأت فكرة التجمع اليهودى فى وطن يجمع اليهود من الشتات ، يباشرون فيه العنصرية اليهودية ، وكانت لديهم الإرادة والدأب من أجل الوصول إلى الهدف المنشود ، وساعدهم فى الوقت نفسه أفكار كانت تدور فى العقل

(١ ـ ٣) صبرى جريس : التوراة الصهيونية والفكر الفرويدى ، ص ١٧٦ ، ١٨٧ .

الأوربى ، فى عقل الشعوب التى تمتلك القوة المادية ، وكذا المعرفة التى تستطيع بهما أن تفرض كلمتها وإرادتها على حركة العالم ، كما ساعدهم تحولات المجتمع الغربى التى يمكن الإشارة إليها فيما يلى :

١ ـ الزيادة السكانية العالية فى بلاد القارة الأوربية ذات المساحات الصغيرة ، فى ذات الوقت كانت الرغبة فى إيجاد حل للانفجار السكانى الممهد للقارة، بتفريغ الفائض من السكان فى المستعمرات الجديدة فى الشرق (الهند وأستراليا وإفريقيا ، وفلسطين) وفى الغرب (فى الأمريكتين) .

وكان (مالتس) قد جاء بنظريته التى ترى أن الزيادة السكانية فى أوربا لا تتوافق مع الزيادة فى النتاج ، الأمر الذى يهدد البشر بأزمة غذائية طاحنة ، ثم جاءت نظرية (دارون) فأيدتها ، وكانت أفكار (چوبينو) فى الأعراق قد رسخت فى عقل الإنسان الأوربى ، ومجملها أن الإنسان الأوربى الأبيض ، هو الجنس الأرقى وسيد الأجناس ، وهو الأصلح لتنظيم شؤون البشر .

كل هذه النظريات والأفكار جعلت الرجل الأبيض مدفوعًا إلى الرغبة فى تفريغ أوربا المزدحمة بالسكان ، وبالتالى ملء فراغات العالم، ولما لا يكون العنصر اليهودى، وهو عنصر سام غير أوربى فى مقدمة الذين سيصيبهم التفريغ فى أوربا ـ وملء أماكن فارغة أخرى بهم ، وكان هذا التفكير منبثقًا من قرارات الحكومات الأوربية القوية .

وقد لا تكون سياسة التفريغ والملء الناتجة عن الانفجار السكانى فى أوربا هى أساس المشكلة ، لكنها كانت إحدى ركائز المشكلة اليهودية فى عملية الطرد من أوربا ، والملء فى فلسطين ، يضاف إليها الركائز الأخرى التى ذكرت مثل معاداة اليهود ، ورغبة الاستعمار الغربى فى أن تكون له قاعدة من العملاء فى الشرق العربى .

كانت أكبر الهجرات فى العصور الحديثة هجرة مواطنى إنجلترا إلى أمريكا وأستراليا ، وكان المهاجرون البريطانيون يمثلون أكثر من ثلث المهاجرين الأوربيين إلى هذه البلاد، وكانت هذه الهجرات تقودها مؤسسات أسست لهذا الغرض مثل :

جمعية الاستعمار القومى التى أسسها (إدوارد جيبون، ويكفيلد) لاستعمار جنوب أستراليا، ولقد قدر لمثل هذه المؤسسة أن تقيم حكمًا محليًا ذاتيًا تحت حماية مبادئ الاستعمار البريطانى ، فأقامت صندوقًا خاصًا للتمويل المالى ، وطالبت المهاجرين أن يقيموا مزارع يزرعونها بأنفسهم، ولما نجحت هذه السياسة الاستعمارية البريطانية التى قام بها المهجرون الإنجليز ، صارت الأسس التى قامت عليها مثالاً اقتدت به المنظمات الصهيونية فى تهجير فقراء اليهود الذين مثلوا طليعة المهجرين اليهود إلى أرض فلسطين ، يؤكد ذلك ما قاله الصهيونى (فلاديمير جابوتنسكى) للجنة الملكية البريطانية فى سنة ١٩٣٧م فى تبرير استعمال القوة العسكرية ضد السكان الأصليين من الفلسطينيين العرب : « كان حتميًا دائمًا على المهجرين الصهاينة أن يلتجئوا إلى استعمال السلاح فى قمع اعتراض السكان الأصليين »[١] .

كانت سياسة التفريغ والملء الاستعمارية ، من أهم القواعد الأساسية لتنفيذ المشروع الصهيونى على نهج الاستعمار الإنجليزى نفسه وعلى مبادئه ، ومن ثم فقد لاقى المشروع الصهيونى المساندة الدائمة من القوى الاستعمارية الغربية ، سواء تمثلت فى فرنسا أو فى بريطانيا ، وصولاً إلى الولايات المتحدة التى أسست على هذه القاعدة نفسها . كذلك وافق المشروع الصهيونى هوى لدى فرنسا وروسيا ، وألمانيا وغيرها من الدول الاستعمارية التى كان لها أطماع فى ولوج المنطقة العربية الإسلامية .

كانت بريطانيا فى بدء مشروع التفريغ والملء ، تقوم بنقل الفقراء الذين لا يجدون عملاً فى موطنهم الأصلى إنجلترا ، الذين كانوا يمثلون عبئًا ثقيلاً على الدولة ـ إلى البلاد الجديدة مثل : الأمريكتين وأستراليا باعتبارهم فائضًا سكانيًا من رعاياها ، ومن أجل هذا المشروع أسست الحكومة البريطانية ، قسم الأراضى الكلونيالية والهجرة بوزارة المستعمرات،وفى سنة ١٨٣٤م عززت المشروع بأن أصدر (البرلمان) البريطانى تعديلاً لقانون الفقراء يخصص الأموال اللازمة لتهجيرهم إلى المستعمرات من خزانة الدولة ، ولقد اقتدى زعماء المنظمات الصهيونية بالمنظمات

---

(١) خالد القشطينى : تكوين الصهيونية ، ص ٩٦ نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ١٩٨٦م عن سى كرى : التاريخ الموجز للكمنولث البريطانى منذ واترلو ـ لندن ١٩٥٦م ، ص ٣٩.

البريطانية فى هذا الاتجاه ، خاصة وقد مر عليها زهاء ثلثى قرن فاكتسبت الخبرة فضلاً عن قرب أرض فلسطين من مواطن التهجير اليهودى من أوربا إليها ، ومن ثم فإن التهجير من أوربا إلى فلسطين أيسر وأسرع ، وأقل تكلفة ، وهو ما عبر عنه تيودور هرتزل فى رواية : (الأرض الجديدة القديمة) « إذا كان هؤلاء يستطيعون عمل ذلك بالهجرة إلى أستراليا ، فكم سيكون ذلك أسهل على طلائع اليهود إلى أرض فلسطين » .

ويرى د. المسيرى أن الظروف كانت مواتية ، وفى مصلحة اليهود الذين بدوا عبئًا ثقيلاً على البلاد الأوربية التى يعيشون فيها ، ذلك أن عدد اليهود ، وتكاثرهم شهد طفرة كبيرة بعد مؤتمر فينا فى سنة ١٨١٥م وهى فترة استقرت فيها أحوال اليهود لأول مرة فى تاريخهم فتزايد عددهم من مليونين ونصف المليون نسمة ٢٥٠٠٠٠٠ فى إحصاء سنة ١٨٠٠م إلى ستة عشر مليونًا ونصف المليون ١٦٥٠٠٠٠٠ نسمة عشية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩م وأرجع المسيرى هذه الزيادة إلى أسباب مهمة مثل : ارتفاع مستوى معيشتهم ، والزواج فى سن مبكرة والتماسك الأسرى ، وحرصهم على أن يزيد عددهم ، مما شجعهم على زيادة الإنجاب ، وحسن رعاية الأبناء ، فضلاً عن أن الأماكن التى كانوا يتجمعون فيها كانت بعيدة عن مواطن الحروب ، وكانت معظم الدول الأوربية تعزف عن تجنيدهم فى جيوشها الوطنية .

ولما كان اليهود يتمركزون فى شرق أوربا (روسيا ، وبولندا ، وأوكرانيا) ولما كان اقتصاد بلاد شرق أوربا أدنى مستوى منه فى بلاد غرب أوربا ـ وبالتالى غير قادر على استيعاب هذه الأعداد المتزايدة ، فقد أدى ذلك إلى ظهور مناخ معاد لليهود ، ومن ثم تهيأة الجو لبعث الصهيونية التى طالبت بتفريغ أوربا من اليهود حلاً للمشكلة .

ومع أن يهود شرق أوربا بدؤوا يهاجرون إلى الغرب الأوربى ، إلا أن تزايد السكان فى أوربا بصفة عامة ، وبين اليهود بصفة خاصة لم يحل المشكلة ، بل أدى إلى تفاقمها فى كل أوربا .

وتصور الغرب ـ بناء على ذلك ـ خاصة فى إنجلترا أن هذه الزيادة فى أعداد اليهود تؤدى حتمًا إلى مزيد من البطالة ، وتؤدى إلى تهديد الأمن الاجتماعى ، مما ولد موقفًا معاديًا لليهود ، كما ولد رغبة فى التخلص منهم باعتبارهم فائضًا بشريًا غير منتج ، وفى الوقت نفسه غير منتم [١] . وكان هذا الموقف من الدول الأوربية ـ خاصة إنجلترا ـ إزاء المشكلة اليهودية ، هو موقف الصهيونية نفسه ، فالأوربيون حرصوا على تفريغ أوربا منهم حلاً لمشكلة البطالة ، وعلاجًا للقلاقل الاجتماعية الناتجة عنها ، واغتنمت الحركة الصهيونية ذلك ، لنقل هذا الفائض إلى أرض فلسطين ، ليكون قاعدة استيطانية لإقامة وطن قومى .

وفى هذا الجو المشحون بكراهية اليهود قدمت حكومة إنجلترا فى سنة ١٩٠٢م مشروع قانون عرف بقانون الغرباء ، وهو تشريع معاد لليهود ، رحب به (هرتزل) وباركه (حاييم وايزمان) كما باركه السير (وليم إيفانز جوردون) الذى كتب التشريع المعادى لليهود (قانون الغرباء) وفيه قال (وايزمان) : « إن قانون الغرباء فى إنجلترا ، والحركة التى قامت حوله كانا ظاهرة طبيعية . . . لا يمكن النظر إليه باعتباره معاداة السامية ، إنه أمر عالمى ملازم اجتماعيًا واقتصاديًا للهجرة اليهودية وليس فى إمكاننا أن نلغيه أو نتجاهله » [٢] .

ولقد ووفق على قانون الغرباء فى سنة ١٩٠٥م فكان بمثابة تمهيد فى غاية الأهمية لوعد (بلفور) الذى صدر فى سنة ١٩١٧م بمنح اليهود وطنًا فى فلسطين، حيث التقت المصالح العنصرية الاستعمارية من جانب الأوربيين ، وعلى رأسهم إنجلترا ، بالرؤية الصهيونية من جهة أخرى ، مما جعل (هرتزل) لا يخفى سروره بقانون الغرباء فيقول فى كتاب : (الدولة اليهودية) : « المكابيون يبعثون ، فمن أراد من اليهود البعث كانت له دولته » [٣] .

وكان (هرتزل) يتمثل خطا الاستعمارى البريطانى (سيسل رودس ١٨٥٣ ـ ١٩٠٢م) فقد دخل إفريقيا عن طريق شركة امتياز خاضعة لميثاق يحظى بموافقة

---

(١) د. عبد الوهاب المسيرى : الأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الأقصى ، ص ٧٤ سلسلة كتاب اقرأ رقم ٦٦١ .

(٢) لينى برنر : الصهيونية فى زمن الديكتاتورية ، ص ٢٠، ٢١ .

(٣) تيودور هرتزل : الدولة اليهودية ، ص ١٢٣ .

بريطانيا وكانت شركة من شركاته قد وصلت قمة نفوذها فى نهاية القرن ١٩م لتشجيع التوسع الاستعمارى فى جنوب إفريقيا ، وكان اللورد ساليسبورى رئيس وزراء إنجلترا قد وافق عليه لمصلحة الشركة البريطانية لجنوب إفريقيا ، وكان على رأسها (سيسيل رودس) المثل الأعلى الذى حذا حذوه (تيودور هرتزل) .

كانت الفكرة التى سيطرت على (هرتزل وهيمنت عليه) أن يطبق فى الشرق العربى بفلسطين ، ما حققه رودس فى إفريقيا الجنوبية ، فكتب إليه يقول : «أرجوك أرسل إلى ما يفيد أنك فحصت خطتى، وأنك موافق عليها، وقد تتساءل: لماذا أتوجه إليك يا سيد رودس ؟ ذلك لأن خطتى خطة استعمارية » (١) .

لكن كيف صار اليهود مشكلة سكانية أوربية ؟ هذا سؤال لا يطول شرحه ، كيف صار اليهود مشكلة فى داخل الانفجار السكانى الأوربى ، وبالتالى فى عمليتى التفريغ والملء ؟

فى خضم الانفجار السكانى فى المدن الأوربية ، لوحظ أن نسبة الزيادة السكانية عند اليهود تفوق نظائرها عند الشعوب الأوربية ، ونظر الإصلاحيون الأوربيون إلى تزايد أعداد اليهود على أنها ظاهرة تهدد الأمن الاجتماعى للبلاد التى يعيشون فيها ، وبناء على تحليل (يوجن كاليشر) فى كتاب : (الهجرة اليهودية) يجد الباحث أن عدد اليهود ارتفع من (٢,٥٠٠,٠٠٠) مليونين ونصف المليون فى إحصاء سنة ١٨٠٠م إلى أكثر من (١٠,٠٠٠,٠٠٠) عشرة ملايين نسمة فى سنة ١٩٠٠م ، فى ذات الوقت الذى ارتفع فيه مجموع سكان العالم خلال الفترة نفسها من ٨٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ثمانمائة وخمسين مليونًا إلى ١,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ألف مليون وسبعمائة مليون نسمة ، أى أن عدد اليهود تضاعف بأكثر من أربعة أضعاف ، فى حين أن عدد سكان العالم تضاعف مرة واحدة » (٢) . وقد تجمع اليهود المتزايدون فى المدن الصناعية كعادتهم ، مع أنهم كانوا لا يشاركون فى النتاج والصناعة لاعتقادهم بتضاد العمل الصناعى مع تعاليم

---

(١) جارودى : فلسطين أرض الرسالات الكبرى ، ص ٣٠٦ نقلاً عن هرتزل .

(٢) خالد القشطينى : تكوين الصهيونية ، ص ٩٨ .

اليهودية ، خاصة العمل فى يوم السبت ، وكانوا يشتغلون فقط فى الأعمال التجارية والمراباة ، ومن أجل ذلك اعتبرهم سكان المدن الأصليين يمثلون عبئًا يهدد أمنهم الاجتماعى .

كان هذا وضع اليهود فى بلاد غرب أوربا ، أما وضع يهود فى شرق أوربا (فى روسيا وبولندا وأوكرانيا) فكان لهم شأن آخر فى صنع القلاقل السياسية ، إذ كان كثير منهم منضمين إلى الجمعيات السرية الثورية ، وكانت لهم مصادمات كثيرة مع الحكومات خاصة فى روسيا (مذابح البوجروم) ، ومع فرار أعداد كبيرة منهم إلى غرب أوربا بعد أن ضاقت بهم أوربا الشرقية ، ظلت هذه الأعداد بدون عمل مما ضخم أزماتهم ، وأزمات البلاد التى يعيشون فيها ، الأمر الذى جعل الأوربيين يبحثون عن حل سريع لهذه الأزمات .

استغلال اليهود لمقولة معاداة السامية التى اخترعوها :

يرجع هذا المصطلح إلى منشئه الصحافى الألمانى اليهودى (وليم ماد) فى سنة ١٨٧٣م، عندما نشر فى كراسة : (انتصار اليهودية على الجرمانية) ثم أسس رابطة معاداة السامية فى سنة ١٨٧٩م التى غالت فى استخدام هذا المصطلح ـ وكان (وليم ماد) يرى أن الصحافة اليهودية تتآمر عليه ، ثم أخذت فكرة معاداة السامية أشكالاً عدة ، فى مقدمتها بعث فكرة أن اليهود لم يؤمنوا بالمسيح الذى بُعث فيهم ، ورفضوا تعاليمه ، ثم قاموا بصلبه (بحسب الاعتقاد المسيحى) وقد دعم هذه الفكرة ، أفكار أخرى تتعلق بالقوميات والأعراق ، فاليهود الذين جاؤوا إلى أوربا فى جماعات متفرقة ، كانوا قبل ذلك يكونون جماعات متفرقة فى بلدان أخرى ، فهم من شتات إلى شتات ، من أعراق شتى ، فكيف يتساوون بالعرق الأوربى الأبيض ، وبالقوميات الأوربية .

ويؤصل الدكتور محمد فتحى الريس أستاذ اللغات الشرقية لمصطلح السامية ، وفيه يبطل المزاعم اليهودية فى القديم والحديث ، ويؤكد أنه من اختراع الكتبة التوراتيين ، ويقول : إن أول مرة يستعمل فيه لفظ السامية بمفهوم العداء لليهود كان فى سنة ١٧٨١م فى بحث عن الكلدانيين ، وهم آخر الأسر العربية الحاكمة

فى العراق قبل الميلاد ، للمستشرق اليهودى النمساوى (أوجست لودفيج شلوتتز) اقترح فيه هذه التسمية التوراتية على مجموع اللهجات العربية قائلاً : « من البحر المتوسط إلى الفرات ، ومن أرض الرافدين حتى بلاد العرب جنوبًا سادت لغة واحدة ، ولهذا كان السوريون والبابليون ، والعرب والعبريون شعبًا واحدًا ، وكان الفينيقيون أيضًا يتكلمون هذه اللغة التى أود أن أسميها اللغة السامية » ثم تلقفها من بعده مستشرق آخر (جوهان جوتفرايد) واستخدمها على نطاق واسع ، وألصق هذه التسمية بالشعوب العربية ، ولهجاتها ، وحضارتها القديمة .

وأصل هذه التسمية توراتى جاء فى سفر التكوين ، وفيه أن نوحًا أنجب ثلاثة أبناء هم : سام ، وحام ، ويافث ، ومنهم جاءت الذرية البشرية ، بعد طوفان نوح عليه السلام .

ومع أن الحضارة القديمة فى العراق القديم هى التى عرفت الطوفان فى مدن : أور ، وأروك ، وأيدو . فإن كتبة التوراة جعلوا الكنعانيين أبناء حام ، كما جعلوا العبرانيين أبناء سام ، ولعنوا حام ، ومجدوا سام ، ولم يكن هذا الشطط فى التقسيم ، وفى اللعن ، وفى التمجيد ، إلا بسبب حقد العبرانيين على الكنعانيين الذين كانوا أصحاب الأرض ، وأهل الحضارة والتقدم والثقافة المزدهرة ، فى الوقت الذى كان العبرانيون فيه أشتاتًا من البدو الرحل ، غلاظًا أجلافًا متخلفين، يتسللون زرافات ووحدانًا إلى أرض كنعان .

إن أسطورة السامية التى اخترعها اليهود ، لا حقيقة لها فى التاريخ القديم ، وكانت الشعوب العربية التى خرجت من جزيرة العرب فى العصور القديمة تنسب إلى مواطن استيطانها ، مثل: الأكديون فى العراق نسبة إلى عاصمة دولتهم آكد ، وكذلك البابليون نسبة إلى بابل ، وهكذا كان ينسب الأشوريون والكنعانيون

---

(١) د. محمد فتحى الريس ـ مبحث منشور بصحيفة الشعب فى ١٢/٢/١٩٩٩م .

(٢) يرى كل من خالد القشطينى فى تكوين الصهيونية ، ص ٩٨ ، والمسيرى فى موسوعة اليهود ٢/ ٤٦٢ أن أول من استخدم مصطلح السامية بالمفهوم السياسى (وليم ماد ١٨١٨ ـ ١٩٠٤م) فى سنة ١٨٧٩م فى كتاب : انتصار اليهودية على الجرمانية من منظور غير دينى ، وقد صدر هذا الكتاب بعد المضاربات التى أعقبت الحرب الفرنسية / البروسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١م) التى أدت إلى خسائر كبيرة للممولين الألمان فألقوا باللوم على اليهود .

وغيرهم ، أو كانوا ينسبون إلى جد معروف كقريش ، وخزاعة ، وعبد القيس ، وبكر وتغلب .

وبينما تؤكد رواية التوراة سيادة سام جد العبرانيين على سائر البشر لتعطيهم حق السيادة على سائر الشعوب بزعم أنهم شعب الله المختار ، فإن رواية القرآن الكريم تقول فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود] . ومن آمن معه وهم قليل ، كانوا يمثلون أصول البشر جميعًا لا فئة مختارة منهم .

وفى العصر الحديث جاءت الأبحاث العلمية لتنقض هذا الادعاء من أساسه ، وواكبه ظهور علم الأجناس (الأنثروبولوچى) والوراثة ليهدم مزاعم اليهود فى التفوق العرقى ، كما يهدم مزاعمهم فى معاداة السامية ، ولقد بلغ هذا الاتجاه ذروته عند النازيين فى ثلاثينيات القرن العشرين ، فألفوا الأبحاث التى تكذب ادعاءتهم ، وتؤكد خسة عنصرهم وخبثه ، وكان رد فعل اليهود أن اغتنموا كراهية الجنس الأبيض لهم ، كما اغتنموا فكرة معاداة السامية » (١) . واستغلوها لمصلحتهم فى بعث التضامن اليهودى فيما بينهم ، وكانت سلاح (تيودور هرتزل) وغيره من زعماء الحركة الصهيونية فى جمع شتات اليهود ، بربط معاداة السامية بالفكرة اليهودية القومية .

ولكن على أية حال ـ فإن زعماء الصهيونية استخدموا معاداة السامية لمصلحة حركتهم فى تقوية مشاعر يهود الشتات بالحاجة الشديدة لمجتمع قومى يجمعهم ، وهذا لا يتحقق إلا بالهجرة إلى فلسطين ، ولذلك فقد وقفت المنظمة الصهيونية تعلن أن العداء للسامية يتمثل فى توجهين :

---

(١) يفضل د. المسيرى ترجمة مصطلح : Antisimitism = ضد السامية = (واللاسامية ـ بـ : معاداة اليهود؛ لأن مصطلح معاداة السامية نتج عن مغالطات يهودية، وعن عدم فهم الثقافة الغربية للأعراق غير الأوربية ، وإذا اعتبر هذا المصطلح مصطلحًا لغويًا تسمُ شعوب الجزيرة العربية وما جاورها ، وهى الشعوب العربية التى عاشت مستقرة فى أرضها ، فهو لا ينطبق على اليهود الذين تعرضوا للإبادة والسبى والاندماج فى شعوب كثيرة مما أدى إلى اختلاط أعراقهم بأعراق هذه الشعوب على امتداد ثلاثة آلاف سنة ، ولم يكن ذلك لأسباب عرقية، ولكن لكونهم جماعات بشرية ميالة إلى إحداث القلاقل فى كل البلاد التى حلوا بها.

الأول : توجه الذين يضمرون كراهية حقيقية لليهود فى البلاد الأوربية . وينقل رجاء جارودى عن يعقوب كلاتزكين Jacob Klatzkin أحد المشاركين فى الموسوعة اليهودية الأثرية الصادرة فى سنة ١٩٢٥م يقول فيها : « إذا كنا لا نقر شرعية معاداة السامية ، فإننا ننكر شرعية قوميتنا الخاصة ، فمن العدل إذن أن تكافح هذه الأمم ضدنا فى سبيل تكاملها القومى ، وبدلاً من أن ننشئ جمعيات للدفاع ضد المعادين للسامية الذين يريدون تقييد حقوقنا ، يجب أن ننشئ جمعيات للدفاع ضد أصدقائنا الذين يريدون أن يمنعونا حقوقنا ، وإذا كان العدو الحقيقى هو الدمج L'assimilation والمساواة فى الحقوق،وإذا كان الهدف الحقيقى هو إنشاء دولة قومية يهودية بفلسطين ، فإن معاداة السامية تساعد على تحقيق هذا المشروع ، والدفاع عن المساواة فى الحقوق ، هو على العكس عقبة فى طريقه » (١) .

وهكذا كان تكيف الصهيونية مع معاداة السامية وتنميتها ، والإفادة منها ، واستعمالها استعمالاً برجماتيًا ، من أجل هدف صهيونى محدد « هو الحصول على دولة صهيونية ، إن ابتداع « معاداة السامية » كان الحيلة ، بل الخديعة المركزية للحركة الصهيونية » (٢) .

ومع هذا فإن الصهيونية تشن حربًا لا هوادة فيها على كل من يفعل فعلاً أو ينبذ بقول لا يكون فى خدمة أهداف الصهيونية ، وتبادر بتوجيه تهمة : معاداة السامية لكل من تسول له نفسه أن يفعل ، مهما كانت قوته أو شهرته ، وعلى سبيل المثال ما حدث (لإرنست بيفن) وزير خارجية إنجلترا فى حكومة العمال بعد الحرب العالمية الثانية ، مع أنه واضع سياسة تحديد هجرة اليهود إلى فلسطين بعد الحرب ، فقد نَبَذَ بقول على سبيل المداعبة فى مؤتمر صحفى فى سنة ١٩٤٥م قال فيه : إن اليهودى البريطانى الذى لا يصل إلى رأس صفوف اليهود الواقفين على رصيف الموانى للهجرة إلى فلسطين لن تصيبه اللعنة فى بريطانيا . فتعرض لحملة الاتهام باللاسامية ، وتشويه السمعة .

---

(١) جارودى : فلسطين أرض الرسالات ، ص ٣٨٧، ٣٨٨ .

(٢) لينى برنر : الصهيونية فى زمن الديكتاتورية ـ التاريخ الموثق للعلاقات الصهيونية بالفاشية والنازية، ص ١٨ ، ترجمة محجوب عمر ـ مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت فى سنة ١٩٨٥م.

كما أن المؤرخ البريطانى الشهير (أرنولد توينبى) تعرض للاتهام بالإلحاد ، ومعاداة السامية لأنه قال فى دراسة له بعنوان : « الغرب الحديث واليهود » : «إن اليهود أصبحوا فى وقتنا هذا أشبه بأثر متحجر من آثار مدينة ساحقة ، وأن اللاسامية فى التاريخ المسيحى ، فرضت على المسيحية بواسطة اليهودية ، وليس بواسطة الهيلان ، وقال تحت فصل بعنوان : « مصير اليهود الأوربيين والعرب الفلسطينيين » : « إن النازيين هبطوا إلى أحط درك بالظلم الذى أنزلوه باليهود ، إلا أن انحطاطهم لم يبلغ انحطاط الصهيونيين من اليهود ، لما أنزلوه بشعب أضعف منهم = شعب فلسطين بالرغم من أنه لم يسئ إليهم » .

عندئذ قامت الدنيا مع قيامة اليهود ، ليس فى إسرائيل وحدها ، ولكن فى كل العالم ، فى حملة تشهير فى الصحف والدوريات بالمؤرخ الشهير ، وخصصت مجلة (جويش فرنتير) عدداً كاملاً (عدد شهر ديسمبر ١٩٥٤م) للهجوم على توينبى لتحط من شهرته ، وتشوه سمعته ، وتدنى من كرامته ، وكان من بين المقالات المنشورة مقالاً (لأبا إيبان) وزير خارجية إسرائيل الأسبق ، أجمعوا كلهم فى مقالاتهم على أن (توينبى) كافر وملحد ، وأنه لا يجب قراءة كتبه فضلاً عن اتهامه باللاسامية قال (أبا إيبان) : « يبدو أن توينبى لا يريد أن يكون أحد مؤرخى القرن العشرين فحسب ، بل يريد أيضًا أن يكون المدعى العام نيابة عن الرب فى يوم الحساب ، فهو يريد أن يقنعنا بأنه على علم مسبق بحكم السماء على قضايا الأرض ، ولقد كفر توينبى أكثر من مرة ، لأنه تنبأ أكثر من مرة بما سيكون عليه قضاء الله فى يوم الحساب » [١] .

ومن آخر من اتهموا بمعاداة السامية روچيه جارودى فى فرنسا ، وذلك لأنه صرح للعالم بأن الصهيونية تعرف الشعب اليهودى باعتباره كيانًا قوميًا ، وتلك بدعة ، وأن مصطلح الصهيونية هو نفسه المراد المساوى للحركة السياسية التى أسسها (هرتزل) ومذهب قومى لم يخرج من رحم الديانة اليهودية ، بل من بطن القومية الأوربية مع أن (هرتزل) لم يكن يقر بالمرجعية الدينية ، ولا يخضع لأى

---

(١) عقيل هاشم وسعيد العظم : إسرائيل فى أوربا الغربية ، ص ٨٤ فى نوفمبر سنة ١٩٦٧م .

وازع دينى ، كما لم يكن محور اهتمامه بإقامة وطن قومى لليهود يتجه نحو الأرض المقدسة على وجه الخصوص فقد كان له هدف قومى يريد تحقيقه بإقامة دولة يهودية فى أوغندا أو طرابلس ، أو قبرص ، أو الأرجنتين ، أو موزمبيق ، أو الكونغو ، ولولا ما تحشده الأسطورة التوراتية من قوة تأثير فى اليهود للأرض المقدسة ما عدل برأيه إلى اختيار فلسطين ، و(هرتزل) مع هذا كان قد صرح بأن المسألة اليهودية لا تعنى بالنسبة له مسألة دينية ، بل إنها مسألة قومية فحسب واستشهد چارودى بقول العالم اليهودى (مارتن بوبر) الألمانى الذى اختار فلسطين محل إقامة مختارًا له ، قال (مارتن بوبر) : « إن الشعور الذى اعترانى منذ ستين سنة عندما انضممت إلى صفوف الحركة الصهيونية ، هو الشعور نفسه الذى يعترينى اليوم ، ولقد كان أملى ألا تسير هذه النزعة القومية على خطا الآخرين (النازية) بأن تبدأ بآمال جسام ، ثم تتردى لتصبح نزعة أنانية مقدسة ، ولا تتورع ، شأنها شأن موسولينى ـ عن أن تصف نفسها بأنها أنانية مقدسة ، كما لو كانت الأنانية الجماعية أكثر قداسة من الأنانية الفردية ، فعندما (عدنا) إلى فلسطين كان السؤال الحاسم الذى يواجهنا: هل تود أن تأتى إلى هنا كصديق وأخ، وعضو فى جماعة شعوب الشرق (العربى) أم ممثلاً للاستعمار والإمبريالية ؟!

(مارتن بوبر) الذى فر من النازية الألمانية وقع فى كمين النازية الفاشية الصهيونية القومية الأنانية ، وهو ما لم يكن يتمناه .

إن ما ذكره چارودى هاهنا أنه استدل بكلام صهيونى مخدوع ، على مدى تعصب الصهيونية القومية الأنانية فى إسرائيل ، حتى بلغت الرغبة الجامحة فى كل فلسطين من وادى العريش إلى النيل ، وجنوب لبنان والأردن وسوريا حتى دمشق وإبادة كل من بهذه الأرض من السكان .

ثم إنهم فى دولة الكيان الصهيونى يحتكرون القداسة لمعتقداتهم وتفسيراتها الدينية وبسبب هذه الشهادة التى نطق بها چارودى للعالم قدم للمحاكمة ، لقد أراد أن يوقظ ضمير العالم ، فقدم للمحاكمة أمام المحاكم الفرنسية بمقتضى قانون: (جيسو) الذى يقضى بمحاكمة كل من يعادى السامية » [1] .

---

(١) راجع : چارودى مقدمة كتاب : « الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية » ، ص ٢٣ ـ ٣٨ .

إن اليهود هم الذين صنعوا فرية « معاداة السامية » ليغذوا بها أهدافهم التحريضية على قتل البشر ، وتدمير الأرض ، وسفك الدماء . والصهاينة يعملون كلما خبت نيران معاداة السامية على إضرامها من جديد ، فهى التى تدفع يهود العالم إلى الرحيل إلى فلسطين ، وكان آخرها ما ادعاه شارون فى خطاب بالقدس فى ١٩/ ٧/ ٢٠٠٤م من معاناة اليهود بفرنسا من اللاسامية ، ودعا يهود فرنسا بضرورة أن يتحركوا فوراً بالهجرة إلى [إسرائيل] بسبب تفجر معاداة السامية فى فرنسا . لكن أحد كبار الحاخامات فى فرنسا رد على دعوة شارون بأن فكرة الهجرة إلى [إسرائيل] غير واردة لدى اليهود الفرنسيين ، لأنهم جزء من روح فرنسا ، وأنهم ليسوا يهوداً فرنسيين بل فرنسيين يعتنقون الديانة اليهودية » (١) .

والمعروف أن يهود فرنسا البالغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ ستمائة ألف وهم أكبر جالية يهودية فى أوربا يعيشون فى أعلى السلم الاجتماعى والثقافى الفرنسى . وكما أفادت الصهيونية من فرية اللاسامية ، أفادت من الفكر الأوربى العنصرى الاستعلائى ، فقد أفادت من أفكار (نيتشه) عن الإنسان الأعلى ـ وبعثه لأفكار (مكيافيللى) فى ثنايا أفكاره التى ترى ضرورة أن تكون القوة فوق الحق ، كما أفادت كذلك من نظرية (دارون) فى التفوق العرقى، فى أفكار مضادة فيما يلى:

١ ـ أن اليهود شعب الله المختار أرقى الشعوب ، وهى فرية توراتية قديمة ، ولكنها بعثت بقوة فى القرن ١٩م وفى القرن العشرين أعلن عالم النفس اليهودى (سيجموند فرويد) أن بعثها فى العصر الحديث كان نتاجًا طبيعيًا لمصطلح «اللاسامية»، وما دامت الأطر الفكرية الأوربية السائدة فى الأعراق تقوم على الاعتزاز القومى بالرقى العرقى ، فلما لا يحترف اليهود الأسباب نفسها لبعث معتقدهم التوراتى بأنهم شعب الله المختار الجدير بأن يكون شعبًا قوميًا له دولة قومية؟

٢ ـ مع أن الثورة الفرنسية نادت بالحرية والمساواة والإخاء الإنسانى ، غير أن هذه الشعارات حملت دعوة صريحة للاندماج ، أى اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، وقبولهم أعضاء فى كل المؤسسات الوطنية ، إلا أنهم ظلوا مصرين على انغلاقهم وتشككهم فى الأغيار ، وراحوا يتيهون بكرم محتدهم مما أغضب عليهم الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيهم .

---

(١) باريس من ليلى حافظ ، صحيفة الأهرام فى ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٤م ، ص ٥ .

إلى جانب ما سبق فإن اليهود الذين عاشوا فى الحرمان والإذلال والمهانة قرونًا طويلة صاروا نهمين إلى اغتصاب كل شىء وأى شىء ، مما أثار مشاعر البغض ضدهم وقد عبر الحاخام (ليو بافنشر) فى سنة ١٩٠٣م عن المحنة التى يجابهها أبناء الطوائف اليهودية فى أثناء تعاملهم مع المجتمع الغربى المتضمنة معاداة السامية قائلاً : « فى كل زاوية يوجد فيها اليهود ، ينظر الناس إليهم على أنهم غرباء فأبعدوهم وعزلوهم ، وبقدر ما منعوا سعوا بمزيد من النشاط إلى الارتقاء والزهو بأنفسهم ، والتباهى بثرواتهم ومعارفهم » (١) .

وبسبب فرية معاداة السامية ، انطلق اليهود فى اتجاهين :

الأول : التقوقع فى الذات ، وغرس روح المقاومة والقتال من أجل تحقيق الحلم القومى فى وقت واحد .

الثانى : ازدياد حجم الغرور فيهم ونماء الرغبة فى تحقيق تفوق ما على كل من كان معهم فى المجتمع الأوربى .

وكل من الاتجاهين خدم الدولة الصهيونية :

فالاتجاه الأول : زاد من رغبة اليهودى العارمة فى تحقق قيام الدولة الصهيونية القومية .

أما الاتجاه الثانى : فهو تنفير الأوربيين من اليهودى ، فيعمل على طرده من أوربا ، وهو بذلك مهد له الطريق إلى الأرض الجديدة بفلسطين ، ومن هنا كانت فتوى الحاخامات الصهاينة بأنه : « يحل تأسيس إسرائيل لفرض إنقاذ المجموعات اليهودية المضطهدة فى بلاد الأغيار » .

---

(١) خالد القشطينى : تكوين الصهيونية ، ص ١٥٦ .

رابعًا : تطور الصهيونية فى العصر الحديث

كان أهم تطور للصهيونية السياسية العلمانية منذ مندلسون حتى هرتزل : بعث الصهيونية فى إطار قومى يعمل على تجميع اليهود من كل مكان فى وطن قومى بفلسطين ، يتحول بعد ذلك إلى دولة يهودية قومية .

كما استبان فإن الصهيونية [١] باعتبارها حركة عودة إلى فلسطين لم تمت فى عقل اليهود، منذ ترسخت فى كتابات عزرا التوراتية فى السبى البابلى إلى اليوم ، ولكنها كانت تأخذ أشكالاً وألوانًا مختلفة ، بحسب ظروف الزمان والمكان ، يغذيها دائمًا اضطهاد اليهودى الذى كان دائمًا بمثابة الوقود الذى يسيرها دائمًا ، وعلى حد تعبير (تيودور هرتزل) أول يهودى يضع الصهيونية فى المجال الواقعى العملى فى العصر الحديث ، فقد رأى أن المسألة اليهودية ، أو الصهيونية توجد حيثما يوجد عدد معدود من اليهود ، وحينما تختفى من مكان فمعنى ذلك أن اليهود قد تركوه وحملوها معهم، ومن الطبيعى أن ترحل إلى الأماكن التى لا تلقى فيها الاضطهاد ، حتى إذا حللنا هنالك فى مكان ما فإن مجرد وجودنا فى حد ذاته يولد الاضطهاد فى الحال ، وسنظل هكذا إلى أن تجد المسألة اليهودية حلاً على المستوى السياسى » [٢] .

ويقصد (هرتزل) بالحل السياسى أن تعمل الدول العظمى التى بيدها التأثير فى تقسيم الحدود فى بلدان العالم على اتخاذ قرار بحل هذه المشكلة المتعلقة باليهود بإنشاء وطن قومى لهم فى مكان بالعالم ـ خاصة بفلسطين .

---

(١) الشائع أن الصهيونية تنسب إلى جبل صهيون بفلسطين ، ولكن الصهاينة المعاصرين يرون أنها معادل لأرض صهيون = أو أرض فلسطين ، وينقل السيد يسن عن المؤرخ الصهيونى (نيوبرجر) أن تحديد الأصل التاريخى لكلمة الصهيونية Zionism من الكلمة التوراتية Zion التى تستخدم فى الغالب مرادفًا لكلمة : القدس ، وأرض إسرائيل. كما أن مفهوم الصهيونية : أيديولوجية تعبر عن أشواق يهود العالم لوطنهم التاريخى صهيون ، أى أرض إسرائيل » السيد يسن : الأسطورة الصهيونية ، والانتفاضة الفلسطينية ، ص ٢٧ ، مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠١م .

(٢) تيودور هرتزل : الدولة اليهودية ، ص ٤٣ ، ترجمة محمد يوسف عدس ، مراجعة : عادل حسن غنيم ، دار الزهراء ـ القاهرة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

لم يكن (هرتزل) السابق بالقول بضرورة تحديد وطن قومى لليهود ، فكما مر فإن كتابات (موسى مندلسون) (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦م) خاصة فى كتابه (أورشليم) الصادر فى سنة ١٧٨٣م ، وهانيه (١٧٩١ ـ ١٨٥٦م) و(موسى هس ١٨١٢ ـ ١٨٧٥م) خاصة فى كتابه (روما والقدس) الصادر فى سنة ١٨٦٢م و(ليوبنسكى ١٨٢١ ـ ١٨٩١م) فى كتابه التحرر الذاتى .

كان هؤلاء فى مقدمة من قاموا ببعث الصهيونية ، فى إطار قومى يعمل على تجميع اليهود فى وطن قومى بفلسطين قبل (هرتزل) الذى لم تكن رؤيته واضحة باعترافه نفسه ، وباعتراف قادة الصهيونية مثل : (حاييم وايزمان) . ولقد دارت كتابات هؤلاء السابقين لهرتزل حول مبادئ يمكن إجمالها فيما يلى :

١ ـ التعمق فى واقع الحياة الاجتماعية والنفسية ليهود الشتات ، لكى يتحرروا ذاتيًا ، ويكون هذا التحرر الذاتى، قاعدة انطلاق من الشتات إلى التجمع فى وطن قومى، أى إعداد اليهود نفسيًا لعمل طموح . (كما جاء فى رؤية ليوبنسكى)

٢ ـ بعث القومية اليهودية، وتحديد القدس لتجميع اليهود المشتتين فى الأرض ليكون مركز تجمعهم بفلسطين (رؤية موسى هس) ولكى يكون (هس) قدوة ليهود الشتات فقد ترك مسقط رأسه فى ألمانيا ، واستوطن فلسطين ، وكان (هس) من زعماء الصهاينة الأول الذين عينوا فلسطين تحديدًا لإقامة الوطن القومى لليهود بعد تحريره من الجماعات غير اليهودية (بحسب كلامه) بعكس (ليوبنسكى) الذى لم يصر على أن تكون أرض فلسطين مركز التجمع اليهودى فى بداية دعوته، قبل أن يتراجع ويرى أن أرض فلسطين بالتعيين هى أهم أرض يمكن تحقيق فكرة الدولة القومية عليها » (١) .

ويعكس (هرتزل) أيضًا الذى رأى فى بداية أحلامه الصهيونية تفضيل الأرجنتين على فلسطين؛ لأن الأرجنتين بحسب قوله : « من أخصب بلاد العالم، وتمتد مساحات شاسعة ، وفيها عدد قليل من السكان ، ومناخها معتدل » (٢) ،

(١ ، ٢) انظر هرتزل : الدولة اليهودية ، ص ١٢ ، ١٣ ، ٦٤ ، وانظر أيضًا عبد الوهاب المسيرى : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ ، مركز الدراسات السياسية الأهرام ١٩٧٥م .

يتلاءم مع طبيعة يهود الشتات الذين عاشوا فى مناخات متباينة بين الحار والبارد ، كما أن فلسطين بحسب قولة (هرتزل) : « التى لها مزية أنها مركز شعبنا وأجدادنا الذى لا ينسى ، وهذه حقيقة تجذب العامة من الناس ، لكن اليهود لم يبقوا شرقيين بعد ، كذلك تظل أوربا قريبة [من فلسطين] ونحن نحتاج مع الربع الأول من القرن الأول من وجودنا [فى دولة قومية] إلى الابتعاد عن أوربا ومشاكلها العسكرية والاشتراكية إذا كنا نريد أن نحقق النجاح » (١) .

٣ ـ دعوة إلى الشعوب التى تضطهد اليهود ، بسبب ما يسببوه فى دول إقامتهم من قلاقل لهذه الدول ـ التى تريد الخلاص منهم ، أن تساند فكرة إقامة وطن قومى لليهود، فيعود على كل من: اليهود، وهذه الدول بالنفع، وقد وصف (هرتزل) اليهود أينما حلوا بأنهم لا يعيشون بدون أن يحدثوا قلاقل للشعوب التى يعيشون بينهم قائلاً : « نحن اليهود » عندما نغرق نتحول إلى (بروليتاريا) = ثوار شيوعيين ، يتبعون جميع الأحزاب الثورية ، وعندما نرتفع ترتفع معنا القوة الرهيبة للمال » (٢) . ومن ثم فقد كانت الدول الأوربية بصفة خاصة ، تعمل لهم ألف حساب ، من أجل التخلص منهم سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية .

٤ ـ أن يكون الدين اليهودى على اختلاف مذاهبه وتباينها عنصراً أساسيًا فى البعث القومى. قال (هرتزل) فى ذلك : « لن تجهل الحركة الصهيونية دور الدين، والكهنة ، فكل مجموعة دينية سيكون لها حاخام يسافر مع رعيته وسوف تتشكل المجموعات المحلية فيما بعد تشكيلاً تطوعيًا حول حاخامها ، وسوف يكون لكل مجموعة محلية قائدها الروحى ، وإن حاخاماتنا الذين نوجه إليهم دعوة خاصة سيكرسون طاقاتهم فى خدمة فكرتنا ، وسيحفزون رعاياهم بالوعظ من فوق منابرهم . . . إننا نستشعر صلاتنا التاريخية من خلال عقيدة آبائنا فحسب » (٣) .

---

(١) انظر : هرتزل : الدولة اليهودية ، ص ١٢، ١٣، ٦٤ ، وانظر أيضًا عبد الوهاب المسيرى : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، ص ٤١٨، ٤١٩ ، مركز الدراسات السياسية الأهرام ١٩٧٥م .

(٢) هرتزل : الدولة الصهيونية ، ص ٦٠ .

(٣) هرتزل : الدراسة اليهودية ، ص ٩٧، ٩٨ .

٥ ـ تشجيع أغنياء اليهود الذين سيبقون فى البلاد التى يعيشون فيها ، فى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة على سبيل المثال ، وحثهم على دعم الاستيطان ، ومساعدة المستوطنين من اليهود بفلسطين بأموالهم ، كما فعل يهود الشتات دائمًا منذ السبى البابلى .

٦ ـ التخطيط العلمى على أساس (برجماتى) = (عملى واقعى نفعى) وعلى سبيل المثال فقد أرسل (هرتزل) إلى (آل روتشلد) رسالة مؤرخة فى ١٤/٦/١٨٩٥ قال فيها : « حالما تتألف الجمعية اليهودية سندعو إلى مؤتمر يشمل عددًا من الجغرافيين اليهود ليقرروا المكان ؛ لأن بمساعدة هؤلاء اليهود الذين سيخلصون بحكم يهوديتهم يتم تقرير المكان الذى سنهاجر إليه ، لأنى سأخبركم الآن بكل شىء عن أرض الميعاد، إلا عن مكانها ، فهذه مسألة علمية بحتة ؛ لأننا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل الچيولوچية وغيرها من العوامل الطبيعية ».

كانت هذه الرسالة عندما كان (هرتزل) يفضل الأرچنتين على فلسطين لأسباب جغرافية ، وچيولوچية ، ومناخية ، وكان الحديث لآل (روتشلد) لأنهم يهود وأثرياء ، ومن ثم سيكونون أكبر ممول مالى للمشروع الصهيونى فى بدايته ، ولكن عندما اجتمع رأى اليهود على فلسطين ، وافقهم (هرتزل) ، وكان هذا الإجماع لسبب (برجماتى) أيضًا استغل فيه واقع الحياة النفسية لليهود المشردين فى العالم ورغبتهم فى العودة إلى وطن الحلم التوراتى .

٧ ـ شحن يهود الشتات بالصهيونية ، وإقناعهم بأهمية حياة هادئة لأول مرة فى تاريخهم كله ، فى وطن قومى يسيطر عليه اليهود فينعمون فيه ، وذلك أفضل من الذل والمهانة التى يعانون منها فى المجتمع الغربى بكل أشكاله التاريخية : بدء من الإقطاع ثم البرجوازية ، ثم الرأسمالية فالشيوعية فالنازية وقد فصل (هرتزل) ذلك فى كتاب الدولة اليهودية على الوجه التالى :

أ ـ إن الغيتو الذى صنعوه بأنفسهم لأنفسهم أكسبهم تفوقًا ماليًا فى العصور الوسطى ، ولكنهم حوصروا فى أعمال بعينها ، وحرم عليهم أغلب الأعمال التى عمل فيها مواطنو البلاد التى سكنوا فيها ، وفى العصر الحديث حتى القرن ١٩ أجبروا على العمل فى المضاربات المالية والربوية ، وحرم عليهم فى الوقت نفسه

أى نشاط اقتصادى آخر ، ومع أنهم فى كلتا الحالين حققوا تفوقًا فى أعمال المال، إلا أنهم ظلوا محتقرين .

ب ـ إن منحهم حق المواطنة ، وتفوقهم المالى دفع بهم إلى تعليم أبنائهم فظهر منهم عباقرة أثروا الحياة الغربية ، وهذا الثراء المتزايد عرض أوضاعهم الاجتماعية للخطر ، ولكن كان فى ذات الوقت ـ من بين الذين تعلموا أبناء أسر فقيرة فلم يشعروا بأنهم حققوا تفوقًا ما ، فتعرضوا لخطر لا يقل عما فعل الثراء الزائد بنظائرهم الأغنياء ، فتحول هؤلاء المعوزون إلى المال ، إلى الجمعيات السرية الثورية اليسارية ، وصاروا مفجرى ثورات ومحدثى قلاقل ، وقد تسبب ضياع اليهود بسبب الثراء الزائد ، والفقر الزائد إلى معاناة من الصراع الطبقى بين معسكرى الرأسمالية والاشتراكية ـ يقول (هرتزل) : « عندما تنبهت الأمم إلى لا إنسانية قوانين التمييز العنصرى أعتقونا ، ولكن تحريرنا جاء متأخرًا جدًا فلم يعد من الممكن إزالة عجزنا فى أوطاننا القديمة ، فمن الغريب ونحن فى (الغيتو) أن تتحول إلى برجوازين ، ولما خرجنا منه ، دخلنا فى منافسة ضارية مع الطبقة المتوسطة ، وهكذا وضعنا تحريرنا فجأة فى وسط دائرة الطبقة المتوسطة لنتحمل ضغطًا مزدوجًا أحدهما يأتى من داخلنا ، والآخر يأتى من الخارج .

« إن المسيحيين البرجواريين لن يمتنعوا عن جعلنا ضحية للاشتراكية ، وإن كان هذا لن يحسن الأمور كثيرًا ، وفى الوقت نفسه لا يمكن إلغاء حقوق اليهود فى المساواة أمام القانون ، بعد أن تم التسليم لهم بها ، ليس لأن ذلك سيكون مضادًا لروح عصرنا ، ولكن أيضًا لأنه سيدفع اليهود على الفور ، أغنياء وفقراء إلى صفوف الأحزاب المخربة » (١) .

وهكذا تمكن (هرتزل) من جمع اليهود من الشتات فى عقد قومى ـ كما استبان فى كتاب : (الدولة اليهودية) ، مدعومًا بالفكر الإمبريالى القومى الذى كان يجتاح أوربا منذ نهايات القرن ١٨م على أساس أن الديانة اليهودية ، والرابطة العنصرية بين اليهود تؤهلهم لأن يكونوا قومية واحدة ، تكون ركيزة الدولة

---

(١) هرتزل : الدولة اليهودية ، ص ٥٩ .

القومية ، المتمثلة الطريقة الغربية فى التوغل الاستعمارى فى الدول المختلفة ، خاصة استعمار إنجلترا لأمريكا الشمالية ، إذ عملت بدأب على تفريغها من سكانها الأصليين ، ثم استعمارها كما فعلت الشيء نفسه فى أستراليا .

بدأت الجاليات اليهودية غير المنظمة تنظيمًا إمبرياليًا ، المدعومة بأموال المتمولين اليهود فى احتلال بعض المواضع فى فلسطين فيما سمى بـ (المستعمرات الخيرية) بفلسطين ، لكن ما فتئت المنظمة الصهيونية أن تركت هذه الطريقة الضعيفة البطيئة من الاستعمار الصهيونى ، وأخذت بنوع منهجى من الاستعمار يكون طريقًا فعالاً لبناء الدولة اليهودية القومية . خاصة بعد أن تأكدت الحركة الصهيونية بزعامة (هرتزل) عدم جدوى هذه الطريقة التى مثلت الاستعمار الصهيونى بفلسطين فى سنواته الأولى من سنة ١٨٨٢م [السنة نفسها التى احتلت إنجلترا فيها مصر] إلى قيام الحركة الصهيونية فى سنة ١٨٩٧م ، ففى بازل سنة ١٨٩٧م تأكد الهدف الصهيونى الأعلى فى العبارة التالية : « إن هدف الصهيونية خلق وطن قومى لليهود للشعب اليهودى يضمنه القانون العام » (١) [يقصد الاستعمار الغربى] ولم يكن (هرتزل) يقصد بهذه العبارة الأخيرة إلا القانون الأوربى الإمبريالى العام .

على أن الحركة الصهيونية منذ مؤتمر بازل فى أغسطس من سنة ١٨٩٧م حتى انعقاد مؤتمر بيلتيمور ١٩٤٢م فضلت استخدام كلمة « وطن قومى لليهود » .

ولكنهم فى مؤتمر بيلتيمور كرسوا عبارة : « دولة قومية لليهود » بدعم من الولايات المتحدة ، ومع أنهم قصدوا منذ البداية بعبارة : وطن قومى لليهود : دولة مستوطنين من اليهود بفلسطين ، إلا أنهم فضلوا كلمة (وطن) حتى لا يثيروا اعتراضات الدول عليهم ، وقد أوضح ذلك (هرتزل) فى نهاية انعقاد مؤتمر بازل فقال : « لو أردت أن أختصر مؤتمر بازل فى كلمة واحدة ـ وهذا ما لن أفعله صراحة لقلت : فى بازل أسست الدولة الصهيونية ، ولو قلت ذلك اليوم لقابلنى

---

(١) د. فايز صايغ : الاستعمار الصهيونى بفلسطين ، ص ١٠ م ت ف مركز الأبحاث ١٩٦٥م نقلاً عن تاريخ الصهيونية : لإسرائيل كوهين ، ص ٤٥ ، لندن ١٩٥٠م .

العالم بالسخرية ، ولكن بعد خمس سنوات على وجه الاحتمال ، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد سيرى العالم هذه الدولة » (١) .

وكان المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى بازل ١٨٩٧م قد انتخب (هرتزل رئيسًا له ـ بالوسائل التى رآها كفيلة بتحقيق غاية اليهود من الاستيطان بفلسطين فيما يلى :

١ ـ استعمار فلسطين أولاً بعمال زراعيين ومهنيين فى الصناعات الأولية لمثل هذا المجتمع ، على أن تتطور الصناعة بحسب تطور المجتمع الصهيونى نفسه .

٢ ـ تنظيم العمل بالجاليات اليهودية فى العالم ، وربطها بمنظمات محلية ودولية يهودية .

٣ ـ تقوية المشاعر اليهودية ، وكذا تقوية الوعى بالقومية اليهودية ، لدى اليهود داخل فلسطين وخارجها .

٤ ـ اتخاذ خطوات فعالة وإيجابية للحصول على موافقة الدول الاستعمارية على المشروع الاستيطانى الصهيونى ودعمه .

وبعد المؤتمر صار المخطط الصهيونى نحو التحقيق سنة ١٨٩٨م ؛ إذ رفعت الحركة الصهيونية شعار استقطاب الجماعات اليهودية لكسب تأييدها للحركة الصهيونية ، وكذلك رفع شعار أهمية العمل بالتقليد اليهودى الدينى ، الذى يجب أن يؤسس على عنصرية دينية يهودية ، ونقاء العرق اليهودى .

وفى سنة ١٨٩٩م ثم تأسيس المصرف اليهودى الاستعمارى تحت اسم «صندوق الائتمان اليهودى للاستعمار لتمويل النشاطات الاستيطانية بفلسطين ، وتأمين الخدمات المالية التى تحتاجها الحركة الصهيونية .

وفى سنة ١٩٠١م تأسس الصندوق القومى اليهودى لشراء الأراضى بفلسطين.

وفى سنة ١٩٠٧م اتخذ المؤتمر الصهيونى السادس قرارًا بمباشرة النشاط الاستعمارى بفلسطين ، فشكلت لجنة فلسطين ، وأنشئت شركة إنجلو / فلسطين فى يافا لتعمل كفرع من فروع صندوق الائتمان اليهودى للاستعمار .

---

(١) انظر : منير الهور ، وطارق الموسى : مشاريع التسوية الفلسطينية من ١٩٤٧ ـ ١٩٨٠م ، دار الجليل للنشر عمان ـ الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، ص ١٥ .

وفى سنة ١٩٠٨م بدئ فى تنفيذ سياسة التغلغل الاقتصادى .

وفى سنة ١٩١٣م جرت الموافقة على إنشاء الجامعة العبرية بفلسطين » [١] .

واستمرت الحركة الصهيونية تسعى للحصول على موافقة رسمية من الدول الاستعمارية ، وتأمين الاعتراف الدولى بوجودها ، إلى أن حانت الساعة عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى ؛ إذ أحست بريطانيا أن مصالحها الإمبريالية ، وسيطرتها على مناطق النفوذ فى العالم ، يتفق مع الإمبريالية الصهيونية ، ومن ثم كان وعد بلفور المشهور .

ويرى د. فايز صايغ أن الاستعمار الصهيونى لفلسطين تميز عن نظيره الأوربى فى آسيا وإفريقيا فى أواخر القرن ١٩ بثلاث سمات أساسية هى :

١ ـ بينما كان هدف الاستعمار الأوربى اقتصاديًا بالدرجة الأولى ، أى يهدف إلى استغلال خيرات الأراضى الإفريقية والآسيوية ، كما كان له هدف سياسى أيضًا بضم هذه البلدان إلى نفوذ الدولة صاحبة السلطة الاستعمارية ، كان هدف الاستعمار الصهيونى بفلسطين يعمل على تفريغها من أهلها ، وإحلال مستوطنين يهود بدلاً منهم ، أى إقامة دولة يهودية قومية لها حكومة لا تخضع لقوة أخرى غير صهيونية ، تعمل على اجتذاب يهود العالم إلى فلسطين .

٢ ـ عمل المستعمرون الأوربيون على استغلال الدول التى استعمروها مع التعايش مع أهلها بالمسالمة ، أو بالقوة ، ولكنهم لم يجلوهم عن أوطانهم ، أما المستعمرون المستوطنون الصهاينة ، فإنهم حرصوا على إجلاء السكان العرب ، وإحلال مستوطنين يهود بدلاً منهم فى أرضهم ، وهو ما يتفق مع شكل الاستعمار الإنجليزى الاستيطانى فى أمريكا ، وأستراليا .

٣ ـ كانت الإمبريالية الأوربية تدعم قواتها المحتلة لأراضى الغير فى آسيا وإفريقيا بالمال والعتاد ، ولم يكن ذلك متوافرًا لحالة الاستيطان اليهودى بفلسطين فى البداية فقد كان يعتمد على دعم الجمعيات الخيرية اليهودية التى يدعمها المتمولون اليهود الأثرياء مثل عائلة (روتشلد) إلى أن قامت الحركة الصهيونية ، وأخذت فى تحديد أهدافها النهائية فى المؤتمر الصهيونى الأول فى سنة ١٨٩٧م فى

---

(١) انظر : د. فايز صايغ : الاستعمار الصهيونى بفلسطين ، ص ١١ ، ١٢ .

خطط عمل فى ثلاثة خطوط متوازية ، ومتصلة هى : التنظيم ، والاستعمار ، والمفاوضات .

أولاً : التنظيم : كان أعضاء الحركة الصهيونية الأوائل ينتمون إلى دول استعمارية مثل : إنجلترا وفرنسا ، وألمانيا ، وروسيا ، ودول عانت من التقسيم بين جاراتها مثل بولندا ـ ولأنهم شاركوا فى تنظيمات سرية ثورية فى هذه البلاد فى مجال الاستعمار فى مواطن كثيرة ، فقد كانوا على وعى وخبرة بأوضاع الاستعمار الغربى فى المستعمرات ، وبكيفية تنظيم دول الاستعمار الغربى لشؤون قواتها الاستعمارية فيها . ومن هنا فقد قامت الحركة الصهيونية بدور شبيه بدور الدولة الاستعمارية فى القيام بأعباء رعاية المستوطنين اليهود فى فلسطين ، وتنظيم شؤونهم ، والإشراف على عملية الاستيطان ، ودعمها من خارج فلسطين من يهود الشتات الأثرياء ، بالمال والعتاد والرجال ، وبهذا التخطيط ملأت المنظمة الصهيونية الفراغ التنظيمى الذى كانت تفتقر إليه الحركة الصهيونية قبل أغسطس سنة ١٨٩٧م .

ثانيًا : تعميم عملية الاستعمار ، وكيفية تمويلها ، أى أدارت الاستعمار على غرار تجارب الاستعمار الأوربى فى إنشاء وزارة خاصة بالمستعمرات ، لتمويل عمليات الاستعمار ، والإشراف عليها ، ولهذا تم تأسيس .

١ ـ المصرف اليهودى للمستعمرات فى سنة ١٨٩٨م .

٢ ـ لجنة الاستعمار فى سنة ١٨٩٨م .

٣ ـ الصندوق القومى اليهودى فى سنة ١٩٠١م .

٤ ـ شركة تطوير أراضى فلسطين فى سنة ١٩٠٨م .

ثالثًا : بذل الجهود السياسية عن طريق المفاوضات مع الدول الكبرى ، لكى تضع عملية استعمار فلسطين فى الواقع العملى بالحصول على اعتراف قانونى بخططها الاستعمارية وإيجاد حماية لها من الدول العظمى ، والاعتراف بها أمراً واقعًا ، ولقد تركزت هذه الجهود فى خطين متوازيين لا يقل أحدهما أهمية عن الآخر :

أولهما : تركيز الجهود على الدولة العثمانية التى كانت تعانى فى ذلك الحين من ضعف ظاهر فى مواجهة الدول الأوربية خاصة إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا ، لأن الدولة العثمانية كانت تحكم فلسطين ، وتملك مقدراتها السياسية ، وكان المخطط إزاء التعامل مع الدولة العثمانية يسير كالتالى :

١ ـ إغراء السلطان عبد الحميد بالمال اليهودى ، بذريعة إنقاذ خزينة الدولة العثمانية مما تعانيه من فقر فى المال .

٢ ـ أن تطلب المنظمة الصهيونية من الدول الأوربية التدخل لدى الباب العالى لإقناع السلطان بأن يسمح للمنظمة الصهيونية بإقامة مستوطنات يهودية بفلسطين تتمتع بالحكم الذاتى .

الثانى : أن يسير المخطط الصهيونى فى مخاطبة الجانب الأوربى على الوجه التالى :

١ ـ محاولة إقناع الإمبراطور الألمانى ـ أقرب الزعماء الأوربيين من السلطان العثمانى ـ بأن يقنع السلطان عبد الحميد بمنح المنظمة الصهيونية ميثاقًا يتيح لليهود إقامة مستوطنات تتمتع بالحكم الذاتى بفلسطين .

٢ ـ إقناع الإمبراطور الألمانى نفسه ، بالموافقة على إنشاء شركة لتطوير الأراضى فى فلسطين بحماية ألمانية وإدارة صهيونية .

٣ ـ العمل على الحصول على إذن من بريطانيا أكبر دولة إمبريالية آنذاك بإقامة بعض المستعمرات الصهيونية ، تتمتع بحكم ذاتى ، تكون توطئة لاستيطان كل أرض فلسطين .

ومع فشل هذه المخططات فى البداية ، إلا أن السياسة البريطانية غير المعلنة كانت تدعم السياسة الصهيونية بمساعدة اليهود بالهجرة إلى فلسطين ، على أساس أن وجودهم الفعلى فيها سيكون بمثابة ضغط سياسى عملى ، حين يتحول وجود اليهود بفلسطين إلى مشكلة أوربية، فتعضد الدول الأوربية الاعتراف السياسى بها.

ومع كل هذه الجهود المبذولة من قبل الصهيونية والاستعمار ، فإن مخططات الصهيونية الثلاثة لم تحقق النجاح المنشود حتى قيام الحرب العالمية الأولى وكان

اليهود بفلسطين يشكلون أقلية لا تتعدى ٥٪ من مجموع عدد سكان فلسطين ولا يحوزون على أكثر من ٢,٥٪ من أرض فلسطين ، ومن هنا انقسم اليهود فى الرأى حيال المشكلة اليهودية ، خاصة الذين كانوا يرون أن مصلحة اليهود فى الدمج فى دول أوربا الغربية ، والولايات المتحدة ، وأفضل لهم من العزل الذاتى بفلسطين ، خاصة وأن الصهيونية قد فشلت فى الحصول على الاعتراف السياسى الكامل من الدول العظمى، أو وعد حاسم من الدولة العثمانية المالكة لزمام الأمور بفلسطين بمنح اليهود حق إقامة مستوطنات فى فلسطين تتمتع بالحكم الذاتى [١] .

ومع أن مخططات الصهيونية كانت فى بداياتها ، كما أنها لم تكن قد حققت إنجازًا ملموسًا لليهود بفلسطين ، إلا أنهم عملوا بدأب وسعى حثيث سواء فى المجال السياسى ، أو فى المجال الميدانى العملى ، وكانت لهم مخططات محسوبة زمنيًا بدقة ، منذ المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل فى سنة ١٨٩٧م وبهذه المخططات المحسوبة كانت الصهيونية تحقق بحلول كل عقد جديد وثبة جديدة فى سعيها الحثيث نحو هدفها المنشود : « ففى العقد الأول من سنة ١٨٩٧م إلى ١٩٠٧م انصرفت المنظمة الصهيونية نحو صنع مؤسساتها الرئيسية : المالية والإدارية والدعائية ، فى الوقت الذى قام فيه مؤسسها (تيودور هرتزل) إلى يوم وفاته فى سنة ١٩٠٤م بالاتصالات السياسية ، والمفاوضات مع شتى حكومات الدول العظمى ، لكى يحصل على براءة الترخيص لحركته بالاستيطان بفلسطين ».

وأطل العقد الثانى للحركة الصهيونية فى سنة ١٩٠٧م بخطة العمل الواقعية التى وفقت بين الخطة السياسية ، والخطة العملية ، فقد كانت الصهيونية السياسية ترى أنه لا شروع فى الاستيطان بفلسطين ، قبل الحصول على موافقة من السلطان عبد الحميد ، وكانت الصهيونية العملية ترى أن الاستيطان لا يتطلب موافقته ، فدعا (وايزمان) إلى خطة توفيقية أقرها المؤتمر الصهيونى الثامن فى سنة ١٩٠٧م تدعو إلى التسلل المنهجى البطىء إلى أرض فلسطين ورعايته ، بحيث يكوّن اليهود المتسللون نواة المستعمرات يهودية تقام حينما تحين الفرصة لذلك .

ثم جاء العقد الصهيونى الثالث فى سنة ١٩١٧م ليحمل الرخصة الرسمية

---

(١) راجع : د. فايز صايغ : الاستعمار الصهيونى بفلسطين ، ص ١٤ ـ ١٦ .

بالاستيطان من سلطة الانتداب البريطانى على فلسطين ـ السلطة الحاكمة الجديدة فى وعد (بلفور) وهى الرخصة التى حظيت بموافقة مجلس عصبة الأمم ، ووثقتها رسميًا بأن وضعتها فى صلب صك الانتداب البريطانى على فلسطين .

وبهذه الرخصة استطاعت المنظمة الصهيونية أن تحول الهجرة اليهودية إلى فلسطين من عملية تسللية بطيئة حذرة ، إلى هجرة واسعة النطاق ، برعاية حكومة الانتداب البريطانى على فلسطين .

وفى العقد الصهيونى الرابع فى سنة ١٩٢٧م حصلت الصهيونية على اعتراف رسمى على تنظيماتها بفلسطين من حكومة الانتداب ، وصار بموجبه للهيئات الصهيونية قسط من الصلاحيات الحكومية ، وأصبحت المستعمرات الصهيونية (الوكالة اليهودية) تتمتع بقدر كبير من الحكم الذاتى ، وصلاحيات الدولة .

وفى العقد الصهيونى الخامس فى سنة ١٩٣٧م حاولت بريطانيا أن تجعل من المستوطنات الصهيونية شبه دولة،أو نواة دولة يهودية على جزء من أرض فلسطين، ومع أن إنجلترا تظاهرت بالتراجع فى السنة نفسها ، وإعلان تراجعها رسميًا فى سنة ١٩٣٩م بإصدار الكتاب الأبيض ، غير أن المنظمة الصهيونية ظلت منذ سنة ١٩٣٧م تتمسك بمبدأ ضرورة قيام الدولة اليهودية ، ثم ما لبثت الولايات المتحدة أن حققت لها ذلك فى مؤتمر بلتيمور فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٤٢م .

وجاء العقد الصهيونى السادس فى سنة ١٩٤٧م لتحقق الصهيونية أعظم إنجازاتها إذ حصلت على موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر سنة ١٩٤٧م بتقسيم أرض فلسطين ، وإقامة الدولة اليهودية المعترف بها فى جزء من فلسطين ، واستطاعت الحركة الصهيونية أن تحول قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى واقع عملى بإعلان الدولة اليهودية فى ١٥ / مايو / ١٩٤٨م .

وفى العقد الصهيونى السابع فى سنة ١٩٥٧م حصلت الدولة الصهيونية من الولايات المتحدة وحلفائها ـ إنجلترا وفرنسا ، على ضمان حريتها فى الملاحة فى مضيق باب المندب ، وخليج العقبة ، والبحر الأحمر ، وبه استطاعت أن تقيم تنظيمًا تجاريًا عن طريق مواصلات بحرية منتظمة مع دول آسيا ، وشرق إفريقيا ، وتهدم الحصار العربى لها فى هذه المنطقة شديدة الحساسية .

وفى العقد الصهيونى الثامن فى سنة ١٩٦٧م استطاعت دولة الكيان الصهيونى أن تثبت أنها أقوى دولة عسكريًا فى المنطقة العربية ، بالحرب التى شنتها على مصر وسوريا والأردن ، وبها استطاعت أن توسع من الأراضى التى احتلتها فى سنة ١٩٤٨م وتضيف إلى حيازتها بقية أرض فلسطين (١) .

وعلى هذا النهج سارت الصهيونية دون أن تتوقف ، إلا عندما هزمتها الجيوش العربية فى سنة ١٩٧٣م غير أن الصهيونية لا تزال سادرة فى غيها وعدوانها على لبنان وسوريا ، وبطشها بالفلسطينيين العزل .

والصهيونية السياسية منذ المؤتمر الصهيونى الأول فى بال سنة ١٨٩٧م وإلى الآن لم تكف عن تنفيذ مخططاتها بخطوات مرحلية ثابتة توسعية محسوبة ، على الوجه التالى :

أولاً : كانت البداية بجهود (تيودور هرتزل) ـ ولكن حتى فى مرحلة (هرتزل) يجب التفريق بين حالين :

الأولى : فيما قبل سنة ١٨٩٧م .

الثانية : فيما بعد سنة ١٨٩٧م .

ذلك لأن فى الحال الأولى كانت الصهيونية لا تزال فكرة مجردة فى طور التكوين النظرى . أما فيما بعد ١٨٩٧م فقد اتخذت طورًا تنظيميا بشكل عملى مستمر من أجل تحقيق الفكرة فى إنجاز عملى فى الواقع المحسوس ، وفى ذلك يقول المؤرخ الصهيونى إسرائيل كوهين : « إن تجسيد الفكرة الصهيونية لم يتحقق إلا فى تسعينيات القرن ١٩ ففى القرن ١٨ لم تكن الصهيونية لتتجاوز تعلق اليهود الروحى بنصوص التوراة، وطقوس الأعياد الدينية، ولم يكن تعلق اليهود بصهيون يعنى العودة الفعلية الجسدية إلى القدس ، وكانت دوافع رغبة بعض اليهود فى العودة إلى فلسطين دينية محضة » (٢) .

---

(١) راجع : فايز صايغ : الدبلوماسية الصهيونية ، ص ٩ ـ ١٨/ مايو / ١٩٦٧م .

(٢) عبد الوهاب الكيالى : المطامع الصهيونية التوسعية ، ص ١٣ نقلاً عن إسرائيل كوهين : موجز تاريخ الصهيونية ، نيويورك ١٩٥١م .

كانت الصهيونية قد استبعدت فكرة إقامة الوطن اليهودى بالأرجنتين وأوغندا وتركزت الفكرة فى فلسطين دون غيرها .

وكانت إنجلترا أكثر الدول الإمبريالية استعدادًا لتقديم المساعدة لليهود لأسباب نفعية ، ولأسباب عقدية أيضًا ، فمنذ مطلع القرن ١٩ ظهرت دعوة مسيحية لدى الكنيسة الإنجليزية تتبنى عودة اليهود إلى فلسطين تنفيذًا لوعد التوراة ، وعلى أمل دخول هؤلاء العائدين إلى الأرض المقدسة حظيرة المسيحية ، ومع أن هذه الدعوة كان لها دوافعها الدينية والسياسية ، إلا أنها لم تقدم خطوات إيجابية ، لعدم وجود منظمات سياسية تدخلها فى الإطار العملى .

ولكن كما يقولون : فإن الظروف تخلق الحالات ؛ واليهود على عاداتهم لا يدعون الظروف تمضى دون أن ينتفعوا بها ، وكانت الحرب العالمية الأولى قد صنعت الظروف وحالاتها التى أفاد منها اليهود ، كما أن هذه الحرب ساعدت على تحسين وضع الاستعمار خاصة البريطانى بفلسطين : « ذلك أن الحرب مهدت لقيام تحالف أبرم سنة ١٩١٧م بين الإمبريالية البريطانية والاستعمار الصهيونى ، ذلك التحالف الذى فتح فى الثلاثين عامًا التى تلت إبرام الاتفاق أبواب فلسطين أمام المستعمرين الصهيونيين ، وسمح لهم بإقامة مجتمع من المستوطنين الصهيونيين ، ومهد الطريق لسلب عرب فلسطين ، وطردهم من ديارهم وخلق دولة صهيونية من المستوطنين اليهود فى سنة ١٩٤٨م »[١] .

وهاهنا تجدر الإشارة إلى موقف الدولة العثمانية ، فقد نجحت جمعية الاتحاد والترقى فى الوصول إلى الحكم بعد ثورة تموز سنة ١٩٠٧م وتمكنت الحركة التى دخلها عناصر من يهود الدونمة المتسترين بالإسلام ، وكذا بعض اليهود من أعضاء الماسونية من القيام بدون بارز فى إضعاف حكم السلطان عبد الحميد ، والتمهيد لحكومة الحرية والائتلاف التى وصلت للحكم فى صيف سنة ١٩١٢م وتعاونت الحركة الصهيونية بإلغاء القيود المفروضة على الهجرة اليهودية إلى فلسطين « وفى سنة ١٩١٤م ألغيت كل القيود التى فرضتها حكومة السلطان عبد الحميد من قبل

---

(١) فايز صايغ : الدبلوماسية الصهيونية ، ص ١٦ .

فى وجه الهجرة اليهودية ، وفى حق نقل ملكية الأراضى فى فلسطين ، وتمكنت الجماعات اليهودية من إيجاد الثغرات ، والاستفادة من فساد الموظفين الأتراك ، وقابليتهم للرشوة ، فتمكنت أعدادٌ من المهاجرين اليهود من الهجرة إلى فلسطين ، والبقاء فيها ، وإقامة مستوطنات زراعية ضمن متصرفية القدس وخارجها » (١) .

لكن ذلك لم يكن صيد الصهيونية السمين ، فصيدها السمين لم يتحقق إلا بعد تحالف الإمبريالية البريطانية مع الاستعمار الصهيونى ، منذ وعد (بلفور) حتى قرار التقسيم فى نوفمبر من سنة ١٩٤٧م . وتسليم القضية برمتها للولايات المتحدة الأمريكية ، عند ذلك صارت تحمل اسمًا جديدًا هو (المشكلة الفلسطينية) وليست المشكلة اليهودية ، والله غالب على أمره .

ولكن يجدر بالذكر أن ثمة عوامل أخرى كانت بالغة الأهمية ، وكان لها تأثير كبير فى مساعدة الحركة الصهيونية وتطورها فى المجتمع الغربى منذ بداية العصر الحديث ، وهذا يتمثل فى القوانين التى ساعدت الجماعات اليهودية فى تمثل حركات الشعوب الأوربية نفسها نحو الاستنارة ، والتقدم المادى والعلمنة بصفة عامة يتمثل ذلك فى الحقوق المدنية ، والمساواة السياسية ، وهدم أسوار (الغيتو) . ولقد تم ذلك فى وقت قصير نسبيًا ، وبسرعة حركة التحديث نفسها فى أوربا ، وتتمثل فيما يلى :

١ ـ فى سنة ١٧٨٧م يصدر الإمبراطور جوزيف الثانى (النمسا) براءة التسامح مع اليهود .

٢ ـ فى سنة ١٧٨٨م يعلن دستور الولايات المتحدة أنه لن يطالب مواطن يتقدم لعمل أن يخضع لامتحان فى الدين .

٣ ـ فى سنة ١٧٨٩م ينص إعلان حقوق الإنسان والمواطن فى فرنسا ، على أن الناس يولدون أحرارًا ، ويظلون أحرارًا متساويين فى الحقوق .

٤ ـ فى سنة ١٧٩١م يمنح المجلس الوطنى الفرنسى اليهود الجنسية الفرنسية ، والحقوق المدنية الكاملة ، وجيوش نابليون تحمل لواء الإعتاق أينما ذهبت .

---

(١) منير الهور ، وطارق الموسى : مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ، ص ١٥ .

٥ ـ فى سنة ١٧٩٥م يحصل اليهود فى هولندا على حقوق متساوية ، ويتم انتخاب أول رئيس يهودى للبرلمان فى سنة ١٧٩٨م .

٦ ـ فى سنة ١٧٩٧م يتم إلغاء (الغيتو) فى إيطاليا .

٧ ـ فى سنة ١٨١٢م يعلن فريدريك وليم الثانى ملك بروسيا : أن اليهود مواطنون بروسيون .

٨ ـ فى سنة ١٨٣٩م تعلن المساواة فى الحقوق بين جميع المواطنين فى كندا .

٩ ـ فى سنة ١٨٤٨م يعلن المجلس الوطنى الألمانى فى فرانكفورت أن الولاء الدينى للإنسان لن يقرر حقوقه الوطنية أو السياسية أو يحددها ، وقد ظل هذا المبدأ النموذج الذى يحتذى فى كل الدساتير التى أصدرتها الدويلات الألمانية إلى أن صدر دستور ألمانيا الموحد .

١٠ ـ فى سنة ١٨٦٧م تم إجراء تعديلات دستورية فى الإمبراطورية النمساوية المجرية لإعطاء اليهود حقوقهم .

١١ ـ فى سنة ١٨٧٠م بعد سقوط روما فى أيدى القوات الاتحادية ، قررت القوات الاتحادية على الفور منح الحقوق السياسية لكل اليهود فى إيطاليا .

١٢ ـ فى سنة ١٨٧١م ألغى الدستور الألمانى سائر القواعد والقوانين المبنية على الأسس الدينية للكافة .

١٣ ـ فى سنة ١٨٧٤م يمنح الدستور السويسرى الحرية الدينية للكافة .

١٤ ـ فى سنة ١٨٨٧ تلغى معاهدة برلين كل القوانين التى تحد من حرية اليهود فى رومانيا وبلغاريا .

١٥ ـ فى سنة ١٩١٧ يعلن سقوط القيصرية فى روسيا ، وإلغاء الامتيازات والقيود الدينية .

١٦ ـ فى سنة ١٩٣٦م يعلن دستور الاتحاد السوفيتى أن المناداة بالعزلة أو الكراهية العنصرية أو القومية ، جريمة يعاقب عليها القانون » [١] .

---

(١) راجع : المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٣/٦٩ ، ٧٠ .

هذه الظروف الدولية ساعدت الصهيونية وفتحت لها أبواب العمل المنظم الإيجابى .

أما الحركة الصهيونية نفسها منذ قامت على ذرائع دينية بحقهم فى أرض فلسطين تعضدها منطلقات قومية ، لإقامة الكيان الصهيونى عليها ، وسار العمل المنهجى ابتداء من (هرتزل) الذى قال : « إن الدولة قد تجسدت فى إرادة الشعب اليهودى فى إقامتها » (١) ، وبدأ التنفيذ بتطويق فلسطين من الأطراف ، مثل استعمار سيناء التى أطلقت عليها الكتابات الصهيونية فى بداية القرن ١٩ فلسطين المصرية ، لكى يكونوا قريبين من فلسطين ، يقول أحد زعمائهم (ديفيد تريتش فى سنة ١٨٩٩م « يجب أن نتمسك بفلسطين الكبرى على أن تكون البداية متمركزة على الأطراف ، هذه هى الصهيونية الواقعية الممكنة ، وبعث (هرتزل) مبعوثه الصهيونى جرينبرج إلى مصر ، وكانت تحت الاحتلال البريطانى ، وزعم (هرتزل) أنه أحرز نجاحًا ما كتب عنه يقول « فى ١٣ تشرين ١٩٠٢م عاد جرينبرج من القاهرة بعد أن حقق نجاحًا تامًا ، لقد كسب (اللورد كرومر) [الحاكم البريطانى لمصر] إلى جانب قضيتنا ، كما كسب بطرس غالى باشا رئيس الوزراء » (٢) .

وكان هرتزل سعيداً بما حققه مبعوثه إلى مصر ، كما راودته فكرة توصيل مياه النيل إلى أرض فلسطين ، فجاء إلى مصر بنفسه فى ٢٥ آذار سنة ١٩٠٣م وقابل (اللورد كرومر) ثم المستشار القانونى للحكومة : « وطلب منه إجراء الترتيبات اللازمة للتوقيع على عقد لاستعمار سيناء مدته ٩٩ تسع وتسعون سنة ، مع منح الحركة الصهيونية كافة الضمانات والحقوق الاستعمارية على أساس أن (هرتزل) أكد أنه لا يريد أن يكون تحت رحمة الشرقيين [المسلمين] خاصة الأتراك ، فى حال انسحاب الإنجليز من المنطقة » (٣) ، لكن خديوى مصر ـ رحمه الله ـ رفض منح الصهاينة الميثاق الاستعمارى المطلوب ، وهكذا فشل استعمار اليهود لوادى العريش وصحراء سيناء ، ومع هذا فقد صرح (هرتزل) : « ومع ذلك فإننى غير يائس ، لقد وضعت خطة جديدة » (٤) .

---

(١) راجع : المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٣/٦٩ ، ٧٠ .

(٢) عبد الوهاب الكيالى : المطامع الصهيونية التوسعية ، ص ٤٠ عن مذكرات هرتزل ٤/١٣٧٢ .

(٣، ٤) المرجع السابق ، ص ٤٥ عن مذكرات هرتزل ٤/١٣٦٤، ١٥٠١ .

ومات (هرتزل) فى سنة ١٩٠٤م دون أن تثمر جهوده بشىء ملموس ، وفى سنة ١٩٠٥م فى المؤتمر الصهيونى السابع تقرر التخلى عن جميع المشروعات الصهيونية باستعمار أية أرض خارج الأراضى الفلسطينية .

كانت الظروف التاريخية فى المنطقة العربية تتقاذفها القوى الاستعمارية ، وكانت تأذن بأفول الدولة العثمانية ، ولأن الظروف تصنع الحالات المواتية للبعض، وغير المواتية للبعض الآخر ، فقد قامت الحرب العالمية ، وأذنت باقتراب الجيوش البريطانية من أرض فلسطين واحتلتها ، وافق احتلال إنجلترا لفلسطين أطماع الصهيونية فتقدمت فى تموز سنة ١٩١٧م بطلب إلى الحكومة البريطانية ، يتضمن الاعتراف بفلسطين وطنًا قوميًا لليهود ، واستجابت بريطانيا لهذه الرغبة اليهودية وأصدرت وعد (بلفور) فى السنة نفسها ، بحق اليهود فى وطن قومى بفلسطين ، لكن الصهاينة لم يكتفوا بذلك ، بل طلبوا أن تكون لهم دولة قومية تضم كل فلسطين ، وهو ما حققته لهم الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد الرئيس روزفلت فى سنة ١٩٤٢م .

لكن ما حدود هذه الدولة فى عيون الصهيونية ؟ إن الدولة الصهيونية لم يرسم لها حدود حتى الآن ؛ لأن الصهيونية تطمع فى إضافة أراضٍ جديدة تضم إلى ما استولت عليه فى سنة ١٩٤٨م بقرار التقسيم رقم ١٨١ المعتمد فى الأمم المتحدة فى نوفمبر سنة ١٩٤٧م، لأن الدولة التوراتية تمتد كما جاء فى سفر التكوين ١٨/١٥ من وادى العريش إلى الفرات ، يقول وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية بعد (هرتزل) : « إننى أعلم بأن الله قد وعد أبناء إسرائيل بفلسطين ، ولكنى لا أعرف الحدود التى رسمها ، إنها أوسع من الحدود المقترحة الآن ، وربما ضمت شرق الأردن، إن الحدود التى نريد أن نتكلم عنها هى حدود فلسطين فى المستقبل، إن الأرض اللازمة تشمل إرث قبائل إسرائيل الاثنتى عشرة أيام التوراة ، بالإضافة إلى الامتدادات الضرورية للحفاظ على وحدة الأرض وسلامتها ، فهى تمتد شمالاً إلى جنوب شرق دمشق ، وتشمل الأردن ، وجزءًا من لبنان ، وكل شبه جزيرة سيناء والعقبة » .

فى سوريا تطمع الصهيونية فى الحصول على سهل حوران ، وجبل الشيخ المصدر الرئيس لمياه فلسطين ، ومنطقة دمشق ، لأسباب مائية وزراعية وعسكرية ، وسياسية [1] ، ومن لبنان الجنوبى حتى ضواحى بيروت لامتلاك نهر الليطانى ، وأراضٍ زراعية خصبة ، إنها تريد أن تسيطر على منابع المياه لنهرى الأردن والليطانى.

ولن تتردد الدولة الصهيونية فى الاستيلاء على أرض سيناء ، لأنها بالاستيلاء عليها تحكم يدها على جسر التقاء آسيا العربية بإفريقيا العربية ، وقد فعلت ذلك مرتين فى سنتى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧م ولا تزال تسعى للاستيلاء عليهما ، إذا سنحت فرصة .

ومع أن إسرائيل استبعدت ضم منطقة الفرات ، لكنها لن تيأس من أن يمتد نفوذها إليها ، والدليل على ذلك القوات الإسرائيلية المسلحة التى تسللت إلى العراق مع القوات الأمريكية التى احتلت أرض العراق العربية فى مارس / إبريل سنة ٢٠٠٣م .

ولقد أقامت إسرائيل خططها التوسعية على أساسين :

الأول : دينى مرتبط بمُلك إسرائيل التوراتى .

الثانى : نفعى بحت ، وهو استغلال أرض عربية تتوفر فيها مصادر المياه والمعادن ، والأرض الخصبة الصالحة للزراعة لرفاه الشعب الصهيونى .

ولا تزال إسرائيل ـ بعد أن اغتصبت أرض فلسطين العربية تتطلع إلى تحقيق حلم بناء إسرائيل الكبرى بعد تفكيك العالم العربى من داخله ، بموجب خطة أعدها موظف سابق بوزارة الخارجية الإسرائيلية « عوديد ينون» وهى دراسة تكوّن رؤيا واضحة لنوايا الصهيونية فى تمزيق العالم العربى ، نشرتها مجلة (كيفونيم = توجهات) التى تصدر بالقدس بالعدد ١٤ الصادر فى فبراير سنة ١٩٨٢م صفحات من ٤٩ ـ ٥٩ . ومما جاء فيها :

---

(١) عبد الوهاب الكيالى : المطامع الصهيونية التوسعية ، ص ٧٩ .

« إن العالم العربى الإسلامى ، بأقلياته العرقية وفئاته الداخلية ، يهدم نفسه لدرجة تثير الدهشة ، كما نرى فى لبنان وفى إيران اللاعربية ، والآن فى سوريا أيضًا ، ولا يستطيع معالجة مشاكله الأساسية بنجاح ، ولذلك فهو لا يشكل تهديدًا حقيقيًا لدولة إسرائيل فى المدى البعيد ، الذى تكون فيه القوة العسكرية المباشرة من الأهمية بمكان . . . إن بنية العالم العربى الإسلامى تشبه بيتًا مؤقتًا من الورق أشاده أجانب (فرنسا ـ وبريطانيا) فى العشرينات [من القرن العشرين] دون أخذ أمانى السكان ورغباتهم بعين الاعتبار حيث تم تقسيمه بطريقة تعسفية إلى ١٩ دولة تتألف كلها من مجموعات من الأقليات والفئات العرقية المتخاصمة ، بحيث تواجه كل دولة عربية إسلامية اليوم التهدم الاجتماعى العرقى من الداخل .

« إن استعادة شبه جزيرة سيناء بمواردها الحالية الكامنة يشكل هدفًا سياسيًا من الدرجة الأولى تعرقل اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام تحقيقه . . . إن المساعدات الأمريكية ليست مضمونة إلى آخر مدى ، وإذا ضعفت الولايات المتحدة داخليًا وخارجيًا ، سيؤدى ذلك إلى تخفيض المساعدات ، وبدون النفط [نفط خليج السويس وسيناء] والدخل منه ، مع المصروفات الهائلة فى أيامنا هذه ، لن نتمكن من تجاوز الظروف الحالية ، وسنضطر إلى العمل من أجل إعادة الوضع إلى ما كان عليه فى سيناء قبل اتفاقية السلام فى مارس سنة ١٩٧٩م .

« إن الوضع الاقتصادى فى مصر وطبيعة نظامها وسياستها العربية سيؤدى إلى وضع يجبر إسرائيل على العمل المباشر ، أو غير المباشر من أجل إعادة سيطرتها على سيناء ، لأهميتها الاستراتيجية ، وكونها منطقة احتياط اقتصادية ، ومورداً للنفط ، ولا تشكل مصر مشكلة عسكرية نظرًا لنزاعاتها الداخلية ، وخاصة أنه يمكن إعادتها إلى وضع ما بعد حرب يونيو ١٩٦٧م خلال يوم واحد ، إن مصر فى صورتها السياسية الداخلية الحالية ، جثة هامدة ، ويشكل تفكيك أراضى مصر إلى مناطق جغرافية متميزة ، هدف إسرائيل السياسى على جبهتها العربية . . . وإذا شظيت مصر ، فلن تعود بلدان مثل : ليبيا أو السودان أو حتى الدول العربية النائية قائمة بشكلها الحالى ، وستتفكك وتنهار .

« إن العراق الغنى بالنفط والممزق داخليًا مرشح ليكون أحد أهداف إسرائيل، ويعد تفسخه بالنسبة لنا أهم من تفسخ سوريا ، لأن العراق أقوى من سوريا ، إن قوة العراق تشكل أكبر تهديد لإسرائيل » .

« وإن الجزيرة العربية كلها مرشحة بشكل طبيعى للتفسخ نتيجة لضغوط داخلية وخارجية ، وهذا أمر حتمى خاصة فى السعودية ، سواء ظلت قوتها الاقتصادية القائمة على النفط على حالها ، أو انخفضت فى المدى البعيد ؛ لأن الانشقاقات الداخلية والانهيار هى عملية واضحة ، وطبيعية فى ضوء البنية السياسية الحالية .

فيما يهم إسرائيل « فلا معنى للتفريق بين مناطق سنة ١٩٦٧م وأراضى سنة ١٩٤٨م ويجب أن ينظر للمشكلة بأجمعها دون أى تفريق ، كما هى منذ سنة ١٩٦٧م ويجب أن يكون واضحًا، مهما كان أى وضع سياسى أو عسكرى، إن حل مشكلة العرب لن يأتى إلا عند اعترافهم بوجود إسرائيل ضمن حدودها الآمنة، حتى ما وراء نهر الأردن [شرق الأردن = دولة الأردن الحالية] كضرورة لوجودنا فى العصر النووى الذى سندخله قريبًا، إنه لم يعد من الممكن أن يقطن ثلاثة أرباع السكان اليهود الساحل الكثيف بالسكان لأن هذا يشكل خطرًا فى العصر النووى.

« وتشكل يهودا والسامرة [الضفة الغربية] الضمان الوحيد لوجودنا القومى، وإذا لم تصبح الأكثرية فى المناطق الجبلية ، لن نسيطر على البلاد ، ولن نقدر على تشكيل إعادة توازن البلاد ديمغرافيًا واستراتيجيًا واقتصاديًا ، على هدف مركزى من أجل وجودنا ، وكذا لن نقدر على السيطرة على الخط الجبلى لتقسيم المياه الممتد من بئر السبع إلى الجليل الأعلى ، إنه الهدف الوطنى المشتق من الهدف الاستراتيجى الرئيسى وهو استيطان الجزء الجبلى من البلاد باليهود » .

وواضح أن هذه الدراسة تقوم على تصديع أركان المجتمع العربى الإسلامى ، وهذا أقل ما تحلم به السياسة الصهيونية التى لا تكف عن إحداث الأزمات ، أو العمل على إحداثها فى المجتمعات العربية بيدها أو بيد حلفائها من الدول العُظمى.

وقد نكون فى هذه الدراسة شىء من الواقع ، أو شىء من شبه الواقع ،

ولكنه فى النهاية هو ما تسعى إليه دولة الكيان الصهيونى . ومن هنا يجب التنبيه ـ قبل البحث عن مدى صحة هذه المعلومات من عدم صحتها ، وإن كانت إلى عدم الصحة أقرب ـ إلى نوايا الصهيونية ، وإلى خططها فى المستقبل ، وهل ستستطيع قوات جيش الدولة الصهيونية أن تقوم بذلك ؟

ـ مع افتراض أن تظل الدول العربية الإسلامية فى حالة تنافر ـ بطبيعة الحال ، والظروف ـ فلن تقدر دولة الكيان الصهيونى ، التى تمثل جزيرة صغيرة فى محيط عربى إسلامى ذلك ـ لا فى المدى البعيد ، ولا القصير ، وكل ما تقدر عليه أنه يمكنها أن تعاقب الفلسطينيين الذين يقومون بأية انتفاضة بإذلال جماعى ، وإبادة للمساكن والزروع ـ كما يحدث فى الضفة الغربية ، وقطاع غزة ـ ثم إن العرب لن يظلوا منقسمين عندما يعون ، ويهبون للدفاع عن كرامتهم ومصالحهم .

المهم فى خطة (عوديد ينون) أنها لا تمثل رأيًا شخصيًا له ، الدليل على ذلك سعى شارون إلى الاستيلاء على الضفة الشرقية من نهر الأردن ، وطرد البيت الهاشمى وتجميع الفلسطينيين اللاجئين فى البلاد العربية وغير العربية ، فى الدولة الجديدة ، مقابل التنازل نهائيًا عن كل ما بقى من أرض فلسطين والضفة الغربية ، وقطاع غزة .

وهذه الخطة قد شغلت حكام الكيان الصهيونى من قبل خطة (عوديد ينون)، وخطة (شارون) فمنذ أن وصل (مناحم بيجن) إلى الحكم فى سنة ١٩٧٧ ، أُسست مدرسة لتدريب (حكام عسكريين لشرق الأردن فى المستقبل) وأهم ما يدرس فيها :

١ ـ طريقة جمع المعلومات الاستخبارية: الجغرافية والديمغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية ، ودراسات عن زعماء المنطقة ووجهائها (بشرق الأردن) .

٢ ـ تاريخ منطقة شرق الأردن منذ ما قبل التوراة وأثناءها ، وبعدها وعن القبائل الكنعانية والعبرية التى استوطنتها، ودراسات عن الإغريق والرومان ، وكل من حلوا بهذه المنطقة من لاجئين ومستوطنين ، ومستعمرين .

ولكن يبدو أن حكام الكيان الصهيونى ، يعتقدون بسكون التاريخ وتوقفه عند ما انتهوا إليه ، أو أنه يتحرك ضامنًا مصلحتهم .

لكن هل كانت مساعى الصهيونية وحدها بجهودها المبذولة بكفاءة فى العمل المراوغ كافية لإقامة الكيان الصهيونى ـ الذى أقيم على مثال الكيان النازى ؟! أم كانت هناك قوى فاعلة أقوى من كل العرب، ومن بينها النظام النازى الذى سقط ـ ضامنة لإقامة هذا الكيان ؟

كان مشروع إقامة الكيان الصهيونى ، مشروعًا غربيًا لاستعمار الشرق الإسلامى الذى مركزه العالم العربى ، ولما حانت الساعة المثلى لتنفيذ المشروع ، كان الجنس المناسب لإتمام المشروع ، هو الجنس اليهودى ، الذى كان يسعى بدوره لإيجاد وطن بأى أرض من العالم .

وعندما يقال المشروع الاستعمارى ، فالمقصود به المشروع الاستعمارى الغربى المسيحى العام ، الذى اضطلعت بتنفيذه الدول الاستعمارية القريبة المسيحية بالتتابع بحسب إقرار الغرب بحق الدولة الغربية صاحبة القوة الظرفية فى تنفيذ المشرع باستخدام اليهود مادة بشرية ، توظف فى خدمة المشروع الاستعمارى الغربى المسيحى · الكاثوليكى / البروتستانتى) .

وليكن معلومًا لذوى التمييز أن اليهود كانوا فى تاريخهم كله مادة بشرية موظفة ، قد هيأت نفسها لتتلاءم مع هذا التوظيف ، داخل الشعوب ذات الحضارات التى عاشوا فى كنفها ، وهم فى حالتهم الأخيرة كانوا فى بلاد الغرب مادة بشرية لا تنتمى إلى الحضارة الغربية ، وإن وظفت فى أعمال بعينها خارج الإطار الحضارى الأوربى ، ومن ثم فإن شعوب الحضارة الغربية جميعًا كانوا متفقين على ضرورة أن يلقى باليهود خارج أوربا ، ومن هنا التقت الأفكار والأهداف التى ثمارها حاجة شعوب الحضارة الغربية (الكاثوليكية / البروتستانتية) إلى ضرب شعوب الحضارة الإسلامية عدوها التاريخى ، فلما تهيأت الفرصة كان على كل من الاستعمار والصهيونية اغتنامها ، بإقامة كيان استيطانى غريب ، فى قلب العالم الإسلامى ، يقطع ما بين رئتيه الآسيوية والإفريقية ويشكل حامية عسكرية تخدم الاستعمار الغربى المسيحى (الكاثوليكى / البروتستانتى) وتم اختيار فلسطين لهذا الأمر لعدة اعتبارات مبررة هى :

١ ـ زعم اليهود أنهم استوطنوا هذه الأرض زمنا ما ، ثم تحويل الزعم إلى حق فى الأرض ، وعلى هذا نشطت أجهزة الإعلام الصهيونى والغربى لاختلاق إسرائيل قديمة ، والسكوت عن تاريخ الشعب الفلسطينى .

٢ ـ أطماع الغرب قبل الصهيونية فى فلسطين ، فهى حبة القلب فى الجسم العربى التى تقع بين رئتيه فى غرب آسيا ، وشمال شرق إفريقيا ، ومن يمتلكه يمتلك مقدرات اقتصادية واستراتيجية مهمة من العالم .

٣ ـ أن تضرب الحضارة الغربية الكاثوليكية البروتستانتية ـ الحضارة الإسلامية، بيد من ينتمون إلى حضارة ثالثة ، وهم اليهود .

وبذلك يحقق المشروع الاستعمارى الغربى كل ما يريد من المكاسب المادية بدون خسائر ، كما يؤكد د. المسيرى بقوله : « إن الجماعات اليهودية كانت معدة، لكى تكون المادة البشرية التى تفى بهذه الحاجة » (١) ، لتحقيق المشروع ، خاصة أن الغرب كان ينظر دائمًا إلى اليهود على أساس أنهم كيان عضوى لا ينتمى إلى الحضارة الغربية ، كما كان يعدهم وسيلة توظف لخدمة الحضارة نفسها وقت الحاجة ـ هذا من ناحية الغرب ، أما من ناحية اليهود ، فهم يعدون أنفسهم شعبًا عضويًا ، بحسب التصور القومى الغربى الذى عايشوه قرونًا طويلة منذ القرن ١٦ حين بدأ الشعور القومى يتكون فى أوربا ، قبل أن يصبح تشكيلا حضاريًا قوميًا فى دول قومية ، تحت أعلام قومية ، ثم كانت أهم نقاط الالتقاء بين الغرب واليهود ، وهو التقاء نفعى بالدرجة الأولى للطرفين ـ فى أن يكون الكيان الصهيونى القومى بفلسطين .

ولقد تنافست ـ على هذا الأساس ـ دول الغرب الكاثوليكى / البروتستانتى العظمى فى توظيف اليهود لخدمة المشروع الاستعمارى الغربى لبلاد المسلمين ، ابتداء من فرنسا / نابليون بونابرت ، يوم أن أراد أن يكوّن إمبراطورية مترامية الأطراف فى الشرق ، يكون مركزها قلب العالم العربى ، وحاول نابليون أن يحقق مشروعه فى المجال العملى فدعا نخبة مصطفاة من اليهود ، وحدثهم فى

---

(١) عبد الوهاب المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ٧ / ٢٩ .

أمر هذا المشروع المهم لكل من فرنسا واليهود ، ولكن الظروف التى أحاطت بالجيش الفرنسى فى مصر ، وأدت بخروجه منها فى سنة ١٨٠١ عطلت تنفيذ المشروع إلى حين آخر ، ثم برزت فكرة المشروع مرة أخرى فى عقل (بسمارك) يوم صار مستشار ألمانيا القوية الموحدة بعد نهاية الحرب النابوليونية فى أوربا ، فلقد فكر بسمارك فى توطين اليهود فى جيب استيطانى فى منطقة حدود محازية لخط بغداد برلين، يعطل مسيرة سكان هذه المناطق بالصدام معهم ، ويكون تحت الحماية الألمانية ، ثم جاء الفاشى (موسولينى) و(النازى هتلر) وفكرا فى نفس الفكرة التى راودت (بسمارك) باستخدام اليهود مادة بشرية مناسبة لمخطط استعمارى .

ومع أن محاولات كل هؤلاء لم تتم ، فإن إنجلترا اغتنمت الفرصة لما واتتها فاغتنمتها ، واستعملت من أجل اغتنامها كل فنون الخداع والاحتيال ، وساوق تخطيطهم اشتداد عضد الصهيونية السياسية بزعامة (تيودور هرتزل) وعلى يديه وأيدى الإنجليز تم تطوير الخطاب الصهيونى / البريطانى المراوغ ، وأبرم عقدًا غير مشروع أخذ شكلاً قانونيًا غير مكتوب ، بمقتضاه تأسست الأحرف الأولى لمواثيق دولية غير مستحقة للصهيونية ، التى أصبحت فيما بعد دولة عسكرية قتالية ، وظيفية ، لها دور محدد يجنى ثماره كل من الاستعمار الغربى / الصهيونية .

واستمرت إنجلترا قيمة ، أو تقوم بدور القيم ، إلى أن بدأت قوتها فى الأفول فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، فسلمت راية قيادة الاستعمار إلى سيدة العالم الجديدة : الولايات المتحدة .

على أنه لا يجب إغفال دور الحركة الصهيونية ، فقد كانت حركة دائبة مستمرة متتابعة ، مثل حركة إبليس الدؤوب الذى لا يكف عن الحركة الخبيثة المفسدة ، والعمل الشرير .

كان تحرك الحركة الصهيونية يسير بطريقة مرحلية ، ولكنه لا ينقطع ، ويبطئ ويسرع بحسب المرحلة الظرفية للحركة بدون توقف ، وكانت المرحلية التى تحكم العمل الصهيونى ، كما وصفها المفكر الفلسطينى فايز صايغ فقال : « إن المرحلية الصهيونية مبدأ نهجى ، وليس مبدءًا غائيًا ، المرحلية ليست تمرينًا تقوم به

الصهيونية من أجل المتعة أو حبًا فى لذة النفس ، وإنما هى نهج فرضته عليها طبيعة عملها من جراء البون الشاسع بين هدفها ، وبين واقعها ، وما دام الأمر كذلك فالمرحلية تظل طريقًا تسلكه الحركة الصهيونية إلى أن تبلغ نهاية سعيها فى أحضان هدفها الأخير . . . [ولن تتوقف حركتها المرحلية] إلا فى إحدى حالين :

الأولى : الاكتفاء التام الناشئ عن التشبع وبلوغ الهدف الأخير .

الثانى : الشلل الكامل الناشئ عن تحطيم قاعدتها » (١) .

والمرحلية الصهيونية تتحدد بضوابط واقعية التطابق مع الظروف وحالاتها ، لأن الظروف هى التى تصنع الحالات المواتية ، والموضوعية التى تساعد على تحقيق الهدف بعيدًا عن الرؤى الموهمة ، كما تساعد على تحقيق المرونة فى اختيار أساليب العمل ، فى كل حالة من الحالات ، وعلى سبيل المثال فإن أسلوب العمل مع الاستعمار الإنجليزى لا يتطابق مع أسلوب مخاطبة السلطان عبد الحميد ، أو التى تتوافق مع أسلوب مخاطبة النازى ، أو موسولينى ، ولذلك فإن المرحلية الصهيونية ـ فى عملها ـ كانت تعد لكل حالة من هذه الحالات ما يوافقها ، فهناك من يعملون وفق مزاج (الدوتش موسولينى) مثل الصهيونى (فلاديمير جابوتنسكى) ومن يعمل وفق سياسة هادئة مع الدبلوماسيين البريطانيين مثل (وايزمان) وفوق كل هؤلاء (تيودور هرتزل) الذى يعمل وفق سياسة مراوغة فى كل الأحوال ، ويتلون بلون كل من يخاطبه من زعماء العالم ـ وكل الصهاينة ابتداء من (هرتزل) إلى (شارون) متفقون على أهمية تحقيق الهدف ، واختلافهم إن بدا للعيان ثمة اختلاف فإنما يكون فى الظاهر فقط ، ووسائلهم جميعًا « تزييف المعنى الأصلى للاتفاقات ، والتراوح بين التفسير بالحرف ، وبين التفسير بالنيات ، والذبذبة بين إلصاق صفة الإلزام إلى بعض الاتفاقيات، وإنكار هذه الصفة من اتفاقيات أخرى، وتحوير معانى بعض ألفاظ مهمة فى الاتفاقيات ، واختلاق اتفاقات لم تعقد أصلاً، وقطع التعهدات الرسمية مع نية النكث بها .

« هذه المعانى الستة يجمعها جميعًا عنوان واحد هو التضليل » (٢) .

---

(١) د. فايز صايغ نقلاً عن : عبادة كحيلة : فايز صايغ بين الدبلوماسية والإعلام ، ص ٧٠ مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٥٧ فى نوفمبر سنة ١٩٦٩م ـ القاهرة .

(٢) فايز صايغ بين الدبلوماسية والإعلام ، المرجع السابق ، ص ٧٠ .

وهذه المعانى التى ذكرها د. فايز صايغ تحتم على الصهاينة وكلاء إبليس فى الأرض أن ينفذوا مخططاتها ، من خلال شخصيات لها تأثير مهم فى دولهم ، وهم فى الوقت نفسه يعانون من نقاط ضعف نفسية مثل : (بلفور) فى إنجلترا ، وهتلر فى ألمانيا النازية ، وروزفلت وبوش الابن فى الولايات المتحدة ، وهم لا يعتمدون على أن تكون اتصالاتهم بهذه الشخصيات فى وضح النهار ، بل تكون بطرق فى غاية السرية ، كما أن تعاملهم ، يكون مع كل شخصية على حدة بعد دراسة عناصرها النفسية والعصبية ، من خلال أهوائها وانفعالاتها وغرائزها التى تحكمها ، ولو أدى ذلك إلى التضحية بالأخلاق والمثل العليا .

وبهذه الطريقة تأسست دولة صهيونية عسكرية قتالية ، أو بحسب تعبير جارودى: « قوة عسكرية لها دولة تضطلع بوظيفة محددة لا تحيد عنها ، ولهذا فإن الأصوات القليلة الخافتة ذات الصدى الاشتراكى التى انتقلت إلى أرض فلسطين من شرق أوربا التى تنادى من حين لآخر بالحرية والمساواة وتصعيد الصراع الطبقى فى أرض فلسطين لتصبح ثورية متضامنة مع الطبقات العمالية فى الوطن العربى أصوات تضيع أدراج الرياح ، ولا يكاد يسمعها أحد ، وكذلك أصوات بعض العلماء والمفكرين الليبراليين المنادين بحقوق الإنسان ، تضاد القاعدة التى قامت على أساسها دولة الكيان الصهيونى ، لا تجد غير سخرية من جانب الغالبية المتحكمة فى إصدار القرار بالكيان الصهيونى ، الذى يعبر عنهم (شموئيل كانس) وهم من يرفضون مجرد الاعتراف بوجود شعب فلسطينى ، أو بوجود قضية فلسطينية يقول : « خلافًا للألعاب البهلوانية، والقيم النظرية التى يمارسها الأساتذة المختصون بالعلوم السياسية أقول : إن القضية مهما كانت تسميتها ليس لها حل فى الأفق » [1] .

إن أفكار الأساتذة والعلماء فى الكيان الصهيونى ـ التى تطالب ببعض الحقوق الإنسانية ـ من وجهة نظر الأغلبية ـ ما هى إلا تنظيرات أقرب إلى الألعاب البهلوانية التى تلعب بالخيال ، دون أن يكون لها تأثير إيجابى فى الواقع ـ وحتى

(١) ألوف هوربن : هل يوجد للقضية الفلسطينية حل ، ص ٥٩ ، تحرير ترجمة غازى السعدى. دار الجليل ـ عمان ، إبريل ١٩٨٣م .

ولو افترض فرضًا أن هناك قضية فلسطينية ، فإن الحقيقة تؤكد أنه لا حل لها على الإطلاق .

إن هذه الدولة العنصرية = الكيان الصهيونى آخذة فى ضم الأراضى الفلسطينية شبرًا شبرًا ، لأن الأمر كما عبر عنه (موشى أرتس) وزير الدفاع الإسرائيلى فى ٢٢/٢/١٩٨٣م بقوله : « إنه على المدى البعيد لن يقبل اليهود أن تعيش أقلية عربية معهم » (١) .

والحقيقة التى كشف عنها جارودى ، هى اتفاق كل من الولايات المتحدة والكيان الصهيونى على تفتيت ما يسمى بالسلام ففى سنة ١٩٨٩م تقدمت الحكومة الائتلافية من الليكود والعمل (شامير / بيريز) بخطة سياسية هى أنه لن تكون هناك دولة فلسطينية على الإطلاق ، كما ذكرت عبارة : « لن تكون هناك دولة فلسطينية أخرى ، لأن الرأى الأمريكى / الإسرائيلى المشترك يؤكد وجود دولة فلسطينية قائمة بالفعل هى الأردن ، ومن هنا فإن حق تقرير المصير للفلسطينيين يعد أمرًا غير قابل للمناقشة ، وإن هذه المبادئ الأمريكية الإسرائيلية نابعة من مبادئ حزب العمل وهى : لا عودة لحدود ما قبل سنة ١٩٦٧م ، ولا وقف لبناء المستوطنات ، ولا تفاوض مع الفلسطينيين ـ ولا دولة فلسطينية .

وكما يؤكد جارودى فإن الولايات المتحدة صدقت رسميًا ، على هذا المشروع المتضمن لهذه المبادئ ، وفى ديسمبر سنة ١٩٨٩م أصدرت وزارة الخارجية الأمريكية الموافقة على خطة بيكر (وزير خارجيتها) أى تحقيق خطة (شامير / بيريز) وتفعيلها ، ولا شىء آخر » (٢) ، فعلت ذلك الولايات المتحدة ، غير عابئة بالأنظمة العربية الإسلامية قليلة الحيلة التى لم تعد تملك من الأمر شيئًا ، فى الوقت نفسه الذى تقوم فيه دولة الكيان الصهيونى العنصرية بقتل الأبرياء من الفلسطينيين ، وتهدم مساكنهم ، وتصادر الأراضى الفلسطينية العربية ، وتبنى المستوطنات ، غير عابئة بالعرب ، ولا بالقوانين الدولية ، ضاربة بقرارات الأمم المتحدة عُرض الحائط ، ثم أقامت ما أطلقت عليه الجدار العازل [العنصرى] على

---

(١) ألوف هوربن : هل يوجد للقضية الفلسطينية حل ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٢) جارودى : أمريكا طليعة الانحطاط ، ص ٨٧ ، دار الشروق ـ القاهرة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

الأرض الفلسطينية ، وهكذا حولت قطعة الأرض العربية التى بقيت للفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة إلى (معزل) فلسطينى تمامًا كما كانت تفعل السلطة النازية مع اليهود الذين أودعتهم (چيتو وارسو) فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

ويغيب عن عامة الناس من العرب أن الجزء الذى يقوم عليه التفاوض بين العرب واليهود لا يتجاوز ٦٪ من كل أرض فلسطين ، تلتف حوله المستوطنات اليهودية كما يلتف الثعبان الضخم حول جسد فريسته قبل هصره وبلعه ، هذا وإن هذه المستوطنات اليهودية ، ما هى إلا توطئة لاستلاب بقية الوطن الفلسطينى فى الوقت المناسب .

وتقوم خطة الحكومات اليهودية منذ (مناحم بيجن) فى سنة ١٩٧٧م حتى (شارون) فى سنة ٢٠٠٤م وما بعدها على خطة واحدة ، هى : عقد العزم على وضع الفلسطينيين فى الضفة الغربية ، وقطاع غزة ، أى هذا الحى الصغير من أرض فلسطين = أى المعزل الصغير ، فى حكم ذاتى بعد مفاوضات طويلة وجائرة ومؤسسة ، تجعل الفلسطينيين يحسون بأنهم أقرب إلى الموت لا إلى الحياة تحت سيادة صهيونية للأرض ـ أى إن هذا المعزل سيعيش فيه فلسطينيون بحكم ذاتى ـ وتبقى السيادة لدولة الكيان الصهيونى على الأرض ـ وكأنها أرض صهيونية .

وتوافق الولايات المتحدة على هذه الخطة التى تدفع حكومة الكيان الصهيونى ثمن موافقتها عليها ، إذ إن هناك عقدًا مبرمًا بين الولايات المتحدة ، وبين الكيان الصهيونى، تتحدد منافع كل منهما فيه باعتراف الآخر ، ومنه يستبين أن المنفعة العائدة على الولايات المتحدة تفوق مثيلتها العائدة على الكيان الصهيونى ـ ولقد لخص (يعقوب ميريدور) وزير التخطيط والتنسيق الاقتصادى فى الحكومة الصهيونية من سنة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤م موضوع هذه المنفعة فى حديث له لإذاعة الجيش الأمريكى ، مركزًا على مدى رخص ثمن إسرائيل فى منفعة المصالح الأمريكية / الإسرائيلية مبينًا : أن إسرائيل فى مهمتها القتالية للولايات المتحدة ضد العرب ، تحل محل عشرة من حاملات الطائرات الأمريكية ، وقدم الوزير الصهيونى كشف حساب بسيط جاء فيه: إن تكلفة بناء حاملات الطائرات العشر هذه تبلغ ٥٠ بليون دولار، ولو دفعت الولايات المتحدة فائدة قدرها ١٠٪ على

تكلفة بناء هذه الحاملات لبلغت ٥ بلايين دولار ، وحيث إن المعونة الأمريكية لإسرائيل لا تصل بأية حال إلى هذا القدر ، أى الخمسة بلايين دولار ، فإن الولايات المتحدة ستظل مدينة للدولة الصهيونية .

« وفى السنة نفسها بيّن أرئيل شارون أن الخدمات التى تقدمها إسرائيل للولايات المتحدة ، تؤكد أنها لا تزال مدينة لنا بسبعين ملياراً من الدولارات » (١) .

ولكن يبدو أن كلاً من الوزيرين الصهيونيين لا يفهمان إلا فى الحساب الذى يكون على الطريقة اليهودية ، وذلك لأنهما نسيا أن داخل التعاقد الإمبريالى / الصهيونى أن تقوم الولايات المتحدة ، بدعم الكيان الصهيونى ماليًا وعسكريًا ، مع حمايتها من أى خطر عربى تتعرض له ، وضمان تفوقها العسكرى على العرب ، كما حدث فى حرب سنة ١٩٧٣م عندما فوجئت جيوش الكيان الصهيونى بحرب ضروس ، ومنيت بهزيمة ساحقة أمام القوات المصرية ـ وعند ذلك ـ تدخلت الولايات المتحدة بكل قواتها التى انطلقت من كل قواعدها بالمنطقة العربية ، ومن أراض قريبة منها ، كما أن دولة الكيان الصهيونى تدين بوجودها المادى ، وتقدمها التقنى والاقتصادى والعسكرى ، للدعم غير المحدود من الولايات المتحدة .

ويعترف كثير من القادة العسكريين فى الكيان الصهيونى بهذه الحقيقة يقول (أهارون باريف) (من قادة منظمة الهاجاناة الإرهابية ـ وأحد وزراء حكومة بيجن فى سنة ١٩٧٧م) : « هناك من يزعم أن قدراتنا على الاستمرار فى تطوير قدراتنا العسكرية لا يستهان بها مطلقًا ، وهذا صحيح ، ولكن ذلك لا يكفى بأى حال من الأحوال لتحقيق توازن قوى بيننا ، وبين الدول العربية فى سباق التسليح الذى يجرى على مستوى آخذ فى الازدياد من الناحيتين الكمية والنوعية ، وبدون المساعدة الشاملة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية لا نستطيع إقرار مبدأ التسليم الإجبارى بوجود إسرائيل ، أو الاستمرار فى المنطقة إلى الأبد » (٢) .

ويمكن تلخيص أهمية دور إسرائيل فى خدمة الولايات المتحدة فى النقاط التالية :

---

(١) راجع التفاصيل بموسوعة المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٧/ ٣١، ٣٢ .

(٢) عن كتاب : هل يوجد حل للقضية الفلسطينية ـ مقالات جمع وتقديم : ألوف هوربن ، ترجمة غازى السعدى ـ دار الجليل ، عمان ، فى إبريل ١٩٨٣م .

١ ـ أهمية موقع فلسطين الجغرافى ، يجعلها قاعدة انطلاق حربى مثالية للقوات الأمريكية فى حال تهديد مصالح الولايات المتحدة بالمنطقة العربية ، منطقة النفط، واستثمار رأس المال الأمريكى ، وأسواق توزيع المنتجات الصناعية الغربية، ويلخص (روچيه جارودى) أركان العلاقة التى تتبادل المنافع بين الإمبريالية / ودولة الكيان الصهيونى فيقول: « دولة إسرائيل ليست سوى حاملة طائرات نووية حصينة تابعة للولايات المتحدة التى تريد أن تفرض هيمنتها على نفط الشرق الأوسط [العربى] الذى يمثل عصب النمو العربى ، وهو مثال نمو يكبد العالم الفقير كل يومين اثنين عددًا من الموتى يعادل ضحايا القنبلة الذرية التى دمرت (هيروشيما) وذلك طبقًا لتقديرات صندوق النقد الدولى » (١) .

وإن الدوائر السياسية والاقتصادية الغربية والصهيونية جميعًا يفهمون أن منح الصهاينة بلدًا لا يملكه (فلسطين) هو المقابل للنفط العربى ، لأنه يمثل واحدة من أقوى وسائل الحركة فى العالم ، وتلك هى مهمة وجود الدولة الصهيونية فى قلب العالم العربى فهى « العميل الأقل تكلفة » (٢) .

٢ ـ إمكانية أن تستخدم الولايات المتحدة القواعد الجوية والبحرية ، والبرية فى دولة الكيان الصهيونى ، وكذا استعمال أجهزة الاتصالات والمواصلات فيها ، فى ضرب أهداف عسكرية مباشرة مثل : ضرب المفاعل النووى العراقى ، فلقد كان تدميره مهمًا للولايات المتحدة ، أكثر من أهميته لدولة الكيان الصهيونى .

٣ ـ كذلك إمكانية الإفادة من المعلومات التى تقوم الاستخبارات الصهيونية بجمعها عن شعوب المنطقة (العالم العربى خاصة) لا سيما أنها تجمع بواسطة يهود جاؤوا من البلاد العربية ، ويعرفون اللغة العربية ، ويقدرون على تحليل المعلومات التى يحصلون عليها بقدرة فائقة .

٤ ـ إفادة الولايات المتحدة من القوات العسكرية الصهيونية فى حماية قوات التدخل الأمريكية فى المنطقة العربية ، والمشاركة فى شن الحرب معها على من

---

(١) راجع جارودى : الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ، ص ١٥، ١٦ .

(٢) جارودى : المرجع نفسه ، ص ١٦ .

تحاربه الولايات المتحدة ، كما حدث فى حرب العراق فى مارس / أبريل ٢٠٠٣م إذ شاركت قوات صهيونية القوات الأمريكية فى حربها على العراق .

٥ ـ بذل جهود صهيونية للترفيه عن الجنود الأمريكيين ، بجلب الداعرات من الكيان الصهيونى إليهم ، أو بالموانى الصهيونية .

وفى مقابل هذه الخدمات التى تقدمها حكومة الكيان الصهيونى للولايات المتحدة تحصل الدولة الصهيونية على ما يزيد عن (٥,٥٠٥,٣٠٠٠٠٠) خمسة مليارات وخمسمائة وخمسة ملايين وثلاثمائة ألف دولار ، وهذا الرقم حصلت عليه دولة الكيان الصهيونى فى سنة واحدة، فى ميزانية سنة ١٩٩٦م» [١] ، وهذا على سبيل المثال ، لا الحصر .

---

(١) راجع : المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٧/ ٣٧، ٤٠ .